





محمود الزيودي

الهاشمية وقرية بلا سقوف

دراسة اجتماعية اقتصادية ثقافية للرواد الأوائل الذين أسّسوا بلدة الهاشمية

دراسات

الهاشمية
وقرية بلا سقوف

• **الهاشمية وقرية بلا سقوف**

• **دراسات**

• **محمود الزيودي**

• **الناشر وزارة الثقافة**

عمان ـ الأردن

شارع وصفي التل

ص . ب 6140 ـ عمّان

تلفون : 5699054/5696218

فاكس : 5696598

بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠٢١/١/٥٨

٣٠٧,٧٢

الزيودي، محمود عليوي

الهاشمية وقرية بلا سقوف/ محمود عليوي الزيودي .ـ عمّان:/
وزارة الثقافة، ٢٠٢٠

(١٨٧) ص

ر.أ. ٢٠٢١/١/٥٨

الواصفات : / القرى/ / المجتمعات الريفية/ / العادات والتقاليد/ / الدراسات الاجتماعية/ / الزرقاء (الأردن)/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

• **الإخراج الفني: إحسان الناطور**

رقم الردمك (978 – 9957– 94 – 626 –5)

دراسات

الهاشمية
وقرية بلا سقوف

دراسة اجتماعية اقتصادية ثقافية
للرواد الأوائل الذين أسّسوا بلدة الهاشمية

محمود الزيودي

2020

فهرست المحتويات

مدخل

قبل إنشاء مصفاة البترول الأردنية كانت الأراضي المحيطة بها برية خالية من السكان المقيمين... تنتجعها بعض قبائل بني حسن في فصل الربيع مع أغنامها لمدة شهرين ثم تعود إلى أراضي الشفا في غريسا والزنية وبلعما وصروت والعالوك... تمر بهذه المنطقة الطرق الترابية التي تؤدي إلى مدينة الزرقاء حيث الأسواق الناشئة في فترة الثلاثينات من القرن الماضي.

حوالي عام 1958، بنى إرشيد الصالح الزغيريين من قبيلة الزيود أول بيت قروي غربي منطقة العزيلاء.. وهي التلة الصغيرة على نهاية مرتفع بين جسر وادي الظليل الحالي وبداية بلدة الهاشمية الحالية (سنوثق بعض أسماء السكان والعمال الأوائل في الدراسة)... يأتي بعدها المعمار العثماني المسمى «جسور سعيداء» (لم أقف على سبب التسمية) وهو جسر كبير (سبع قناطر) لسكة الخط الحديدي الحجازي القادم من المفرق إلى الزرقاء.

حينما بدأ حفر أساسات البناء لمصفاة البترول الأردنية في عام 1959، بدأ أوائل العمال من قبيلة الزيود وبعض قبائل بني حسن العمل في المشروع منذ بدايته... وسنعرض بالتفصيل لليد العاملة من قبائل بني حسن خارج المهن التقليدية في زراعة الأراضي وتربية المواشي... ولأن المسافة بعيدة بين المصفاة وأم الصليح وغريسا، والطرق ترابية؛ فقد سكن أوائل العمال في بيوت الشعر التقليدية، ثم بنوا منازل ثابتة من لبن التراب حيث أصبحوا قرب مكان عملهم في المصفاة.

كان الزيود من أوائل المؤسسين لبلدة الهاشمية الحالية... ولهذا اقتصرت البحث على

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه القبيلة... وهو لا يختلف عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لقبيلة بني حسن وقبائل البلقاء بشكل عام.

كما أن الهجرة من الريف إلى حقول العمل الحديث في المصانع (كما هو الحال في مصفاة البترول) أدت إلى تفريغ قرية غريسا من سكانها الذين لم يجدوا أخف من أبواب ونوافذ الخشب بالإضافة إلى القصيب (البوص) وخشب السقوف ليحملوه في هجرتهم. وأصبحت القرية مثالاً عالمياً على الهجرة من الريف إلى المدينة... ولعلها القرية العربية الوحيدة التي خلت من سكانها لذلك السبب.

عانت القرية الأردنية من الخراب بهجرة السكان بسبب الأوبئة وغزوات البدو التي دمرت الكروم والمحاصيل الحقلية.. أما غريسا فهي حالة نادرة جعلتني أهتم بدراسة تاريخها وتاريخ سكانها.. وقد أثبتت بعض الوثائق كما كتبتها وأذعتها باللهجة الشعبية الأردنية المعاصرة في برنامج حكايا أردنية الذي اعتمدت في نصوصه على ما قرأت وسمعت ورأيت في حياتي.. والله الموفق.

البدايات

تقع قرية غريسة أو غريسا على الطريق التجاري لمملكة الأنباط المؤدي من البتراء إلى دمشق وتدمر، ولا بد أنها إحدى محطات الاستراحة والحراسة على هذا الطريق. فقطع الفخار المتناثرة بين خرائبها تؤكد هويتها النبطية، ويؤكد موقعها المرتفع أنها تشكل مع بلعما وحيانات مراكز مراقبة للصحراء الشرقية خشية غارات البدو على محطات القوافل التجارية والزروع في مناطق الشفا الجبلية، فقوافل الأنباط القادمة من البتراء تخرج من عمان إلى الزرقاء ثم خو مروراً بالخربة السمرا وأم الجمال ودير الكهف حتى بصرى.

تقول عالمة الآثار والحفريات مارغريت موري: (أصبحت ثروات الشرق والغرب تصب في البتراء كما تصب المياه في أوديتها، ومثل جميع التجار أدرك الأنباط قيمة تأمين الحماية والأمن للعمليات التجارية ونقل البضائع، حيث اقتنعوا تماماً أنه من دون ضمان الأمن فإن قنوات التجارة سوف تتحول وتنقل إلى مناطق أخرى بحثاً عن الأمن، وأن الخسارة ستكون على المنطقة التي تفلتت منها هذه التجارة وليس على التاجر نفسه... لذلك سيطر الأنباط على الصحراء بالكامل بما فيها المناطق القديمة لأدوم ومؤاب وعمون، وفي لحظة ما ضموا دمشق وجعلوها عاصمة لهم في الشمال.

تنتشر الآن الآثار النبطية على كامل مساحة الهضبة الأردنية، وعلى كل تلة يوجد حصن أو نقطة مراقبة نبطية، وبهذا كانت المنطقة بالكامل آمنة محروسة بشكل جيد؛ لذلك أصبحت (قاطرات) قوافل الإبل الآتية من بلاد العرب أو ميناء العقبة تسير بكل يسر وسهولة، وكان التجار مطمئنين بأنهم مجرد ما دخلوا حدود مملكة الأنباط ودفعوا الرسوم المترتبة عليهم فقد أصبحوا في مأمن ولن يكون هناك ما يهدد تجارتهم أو يبعث بالقلق عليها.

من دون شك كان هؤلاء التجار يدفعون رسوماً باهظة ثمناً لذلك الأمن كما كان الأمن المتوفر يستحق ذلك الثمن، وبهذا بنى الأنباط ثروة وقوة كبيرتين...).

تقع غريسا على تلة مرتفعة يرى الناظر منها منطقة الزرقاء حتى بيرين والعالوك غرباً ثم مشاريق الصحراء حتى مناطق الخربة السمراء وشمالها... مما يشكل مركز مراقبة لحركة القوافل التجارية وحركة البدو في الصحراء المجاورة... ولا بد أن اختيار موقعها كان لهذه الغاية، فهي بعيدة عن مصادر المياه الجارية في السخنة وسيل الزرقاء.

تشير خرائط المؤرخين وعلماء الآثار إلى أن طريق تجارة الأنباط يخرج من عمان (عمون) إلى جرش ثم دمشق بحيث يحاذي مجرى نهر الزرقاء ثم القنية التي تعدّ من قرى الزيود وهي أقرب إلى جرش من أية قرية أخرى من قراهم... قبل القنية يقع نبع خريسان.. تطل عليه من مرتفع عالٍ شجرة خروب معمرة، قدسوها «بني حسن» باسم «حدد».

كانت الأمهات يخوّفن أولادهن بقدرة حدد على عقوبتهم إذا أخطأوا... والمعروف تاريخياً أن حدد هو واحد من آلهة الأنباط التي عبدوها مع آلهتهم الكبيرة «ذو الشرى».
الطريق الثاني يأتي من دوماثا (الجوف الحالية) إلى عمان ثم تواصل القوافل سيرها إلى الشرق مروراً بالزرقاء وغريسا وبلعما وحيانات حتى أم الجمال ومن ثم إلى بصرى.

ولأن الأنباط اشتهروا بتقنية الحصاد المائي من الأمطار؛ فإننا نلاحظ وجود بعض

الآبار النبطية في غريسا، كما هو حال بئر الحمام إلى الغرب من القرية، وبئر الشمالات في منطقة الحوّطان تحت القرية من الجهة الجنوبية... كذلك القبور المنحوتة في الصخر على طريقة الأنباط الذين اهتموا بالقبور لدرجة أنهم ينحتونها قبل موتهم، وذلك كما في أغلب الدراسات والحفريات عن آثارهم.

وتبدو التلاع والسهول حول القرية معمورة زراعياً منذ زمن بعيد... ففي سفح جبل الطي الذي يقابل القرية من الجنوب معصرة حجرية تماثل معاصر الأنباط في وادي الحسا، والمعروف أن قرى الأنباط وحامياتهم تكتفي ذاتياً من زراعة الحبوب والكروم.

ويتحول الفلاحون في حالات الطوارئ والخطر إلى فرسان مقاتلين... ولعل غريسا ازدهرت زمن ملك الأنباط رب إيل الثاني (70 ـ 106 م.) الذي اتخذ من بصرى عاصمة لمملكته قبل قيام الإمبراطور الروماني تراجان بضمّ المملكة عسكرياً سنة 106 م. وأسس الولاية العربية الرومانية.

بعد زوال دولة الأنباط استغل الرومان المواقع نفسها للأهداف نفسها بما في ذلك تقنية الأنباط في الحصاد المائي، فالآبار المتناثرة حول غريسة تؤكد على ذلك، ولعل الحفريات الأثرية في المستقبل تكشف عن تاريخ القرية الكثير، فمعالم الأبنية الحجرية البارزة تدل على مشروع قلعة حصينة، وهناك آثار لقبور نبطية مشابهة للقبور المحفورة في البتراء والحجر (مدائن صالح) وأم الجمال، والمعصرة الباقية آثارها في جبل الطي المقابل للقرية من الجهة الجنوبية تدل على نهضة زراعية متميزة، وتدل المنحوتات الحجرية التي بنى الزيود قريتهم غريسا على أنقاضها على فن كورنثي لم تستكشفه الحفريات بعد.

في زمن الدولة الأموية بقي الطريق الشرقي من درعا إلى عمان مروراً ببلعما وغريسا من طرق الاتصال بين العاصمة دمشق ومدينة عمان، الذي اهتم به الأمويون وأنشأوا فيه معملاً لضرب النقود استمر طوال زمن بني أمية... دلت الحفريات على أن أغلب

نقود عمان ضربت في زمن الخليفة عبد الملك ابن مروان، وأن كل درهم ودينار بين يدي الناس زمن الأمويين كان مصنوعاً في عمان .

حينما استولى العباسيون على الخلافة سنة 750 م أبطلوا المرافق كلها التي بناها الأمويون ونقلوا العاصمة من دمشق إلى بغداد، تراجعت عمان والمناطق المحيطة بها حتى قال الشاعر الخطيم العقيلي فيها:

أعوذ بربي أن أرى الشام بعدها

وعمان ما نمى الحمام وغـــردا

فذاك الذي استنكرت يا أم مالك

فأصبحت منه شاحب اللـون أسودا

في زمن المماليك لعبت البلقاء دوراً كبيراً في الحشد لتحرير القدس من الإفرنج الصليبيين... كانت زيزيا أحد مراكز حشد جيوش الناصر صلاح الدين الأيوبي ورافقت بعض قبائل البلقاء صلاح الدين، ومنها بعض قبائل بني حسن التي أسكنها صلاح الدين في بعض مدن فلسطين بعد التحرير.. كما هو حال العموش والزيود في جبل نابلس، والمشاقبة في ضواحي القدس الشريف... ولم يزل فرع من قبيلة الزيود يقطن بلدة سيلة الحارثية في جبل نابلس وفي بلدة شفا عمرو في المثلث.

وبعد معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية أخذوا يتواصلون مع القبيلة الأم في غريسا والهاشمية، وحينما استشهد الرائد راشد حسين الزيود 1/ 3/ 2017 أطلق اسمه على أحد ميادين بلدة سيلة الحارثية.

في العصر العثماني كثرت الغزوات القبلية طمعاً بالمراعي الخصبة ومصادر المياه، وكان نهر الزرقاء أحد ميادين القتال في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وعلى الرغم من جنوح قبيلة بني حسن إلى الحياد إلّا أنها أرغمت على المشاركة في تلك الغزوات بحكم تحالفها مع قبائل البلقاء بزعامة العدوان، وترك لنا الأدب الشعبي وصفاً لبعض تلك

المواقف، فهذا الشاعر حسن الزيودي الملقب بزناد البلقاء يدلي بدلوه:

الزيودي قال فن

بالعداوين يوم لفن

طردهن للخيل سن

مع سناين جندويل

وهذا الشاعر محمد بن غدير الخلايلة يتوعد إحدى القبائل بحشود حلف جبل عجلون مع البلقاء:

ابن فريح يجيك من الجبل زمقان

والحسني والراشدي والعتومي

سيوركم تردوا على راس عمان

ولا على الزرقا كثير الحزومي

حصدت الصدامات القبلية أرواحاً كثيرة من الغزاة والمدافعين.. روى لنا قبلان الحمد الجنادا أن مسافراً زار منحدر سيل الزرقاء بعد السخنة وهو في طريقه إلى القنية، كانت الزيارة بعد عام من إحدى الغزوات، ذكر الرجل أن الرياح تسفي أظافر القتلى كما تسفي التبن أو القش، لم يجد الرجل جثثاً، لأن الغزاة لا يدفنون قتلاهم، ما عدا عقيد الغزو أو الشيخ (سنتحدث عن هذا لاحقاً)، والبقية يتركونهم للكواسر وباقي الوحوش.

حينما وصل الخط الحديدي الحجازي بين الخربة السمرا والزرقاء، أصبحت المناطق القريبة من سكة الحديد آمنة؛ لتردد الجيش العثماني عليها باستمرار، فقد أقام الجيش العثماني نقاط مراقبة وحماية (كركون) على تلّة فوق مصنع الأنابيب الحالي، وأخرى غربي موقع المصفاة، والثالثة غربي العزيلا، وكلها تشرف على الجسور السبعة.

الزيود في غريسا

كانت منازل قبيلة الزيود في أراضي حمامة، وشرقي المدور، وأراضي البويضة، كما يذكر الفريق فردريك بيك (1886 – 1970) في كتابه «شرق الأردن وقبائلها» (ترجمة بهاء الدين طوقان – القدس ـ 1935)، الذي انتهت خدماته في إمارة شرق الأردن عام 1930، في تدوينه لفروع القبيلة يذكر أن الزيود ست فرق: 1. العثمان 2. الإبراهيم 3. اليعقوب 4. الصغيرين 5. العباس 6. الفرهود، ويلتف عليهم النواصرة والبكور والجنادا وأبو جابر وابن معلاّ.. أضاف إليها كل من الشديفات وفروعهم، والغويريين، ذكر لي الراحل حسن الراشد الخليف أنه شاهد عثمان قاسم يحصي نفوس القبيلة.

في الوثائق الأردنية جرى إحصاء السكان في شرقي الأردن عام 1922... الإحصاء بإشراف الأمير شاكر بن زيد، مشاور العشائر في ذلك الزمن... والتنفيذة من قبل عثمان قاسم كاتب الرسائل لنائب العشائر... نقرأ من وثائق التعداد الذي كتب بخط اليد: كان عدد سكان زبدة/ إربد 30 رجلاً وامرأة وطفلاً، يسكنون في عشرة منازل.. بينما كان عدد سكان الزرقاء 800 نسمة، يسكنون مئة بيت... في عمان العاصمة 6800 نسمة..

السلط كانت أكثر المدن الأردنية سكاناً، تعدادها 30,000 نسمة، تعيش في 2500 بيت.. في تعداد القبائل تذكر الوثيقة أن قبيلة بني حسن كان عديدها 15,000 نسمة، يسكنون 3,000 منزل (بيت شعر).. إذا قسمنا هذا الرقم على قبائل بني حسن، وأخذنا بعين الاعتبار أن الإحصاء تم بسؤال المخاتير والشيوخ، يكن عدد نفوس كل قبيلة حوالي 2,000 نسمة.

لعل الزيود استوطنوا غريسة حوالي عام 1925، يذكر عيد أبو جابر أن أولى رحلاته للعمل في فلسطين بدأت عام 1927.. وضعت دائرة المساحة البريطانية شاخصاً بجانب قبر مقبل المعلا وظهر الموقع والاسم على الخرائط القديمة (قبر مقبل المعلا)، أما مكان الشاخص فاسمه القارمة، نسبة للشاخص نفسه.. وقتل أحد أفراد فخذ الشعار (على يد لصوص) غربي قرية أم الصليح أو أبو الصليح، في مكان يعرف بمذبح الشاعر... وفيما بعد قام علي الكايد العتوم من موظفي الأراضي في الإمارة مع المساح عودة الزعمط يرافقهم شيخ القبيلة شهاب الزيودي بإفراز أراضي غريسا وأبو الصليح، وتسجيلها باسم عشائر القبيلة، وهم الإبراهيم، الجنادا، العلي، الزغيرين، العثمان، الفرهود، المعلا، وأصبحت القرية والأراضي لهذه العشائر فقط، لم يشاركهم بها أحد سوى حمدان الفضلي، وهي تبدأ من عراق الجير قرب بلعما، وتنتهي حول وادي الظليل قرب مصنع الأنابيب الحالي، انحداراً إلى حسيّا بجوار السخنة، وفي قرية القنية من مرج الوقف إلى سيل الزرقاء، وكلها تتبع إدارياً إلى متصرفية المفرق حتى نهاية الستينات من القرن العشرين.

الفضلي نسبة إلى قبيلة الفضل من قبائل بلاد الشام، تحالفت مع العيسى والسرحان والفحيلي بحلف يسمى «أهل الشمال» حوالي عام 1650.. تشتت فيما بعد على يد المحفوظ السردي، لجأ بعض الفضل إلى الجولان وحوران والبلقاء، تحالف فضل البلقاء مع الزيود بزعامة صالح اليعقوب الزغيّر حوالي عام 1850 بما يسمى «حلف الحسنى»، وهو سوادي بدوية ظهرت خلال الحروب القبلية في القرن السابع عشر، من بنوده غير المكتوبة: تاكل إللي آكله وأعاف إللي تعافه.

المقصود بالعلاقات القبلية: تحالف حليفي وتعادي عدوي، تغزي معي ولك مقسم من الغنيمة، في المصاهرة واقتناء الخيل وتبادل سلالاتها تأخذ مني وأعطيك، تقاتل معي ظالماً أو مظلوماً... حينما فوضت الأراضي جاء حمدان الفضلي بحكم الحسنى فأعطاه سالم الصالح اليعقوب 175 دونماً من مقسم الزغيرين بجانب مقام علي الزيرة (مقبرة الشهداء حالياً).

البناء

اقتسم الزيود خرائب قرية غريسا للسكن وخزن البذار والمؤونة، فقد بنوا منازلهم ـ وهي على الأغلب غرفة وحوش ومخزن ـ على أنقاض المنازل النبطية والرومانية، مستفيدين من الحجارة المنحوتة التي لم تزل باقية في آثار المنازل حتى الآن، وجلبوا حجارة من ضواحي القرية على ظهور الجمال، ثم ظهر الحجّار أبو نجية قادماً من جرش، وبدأ تكسير الحجارة وتشذيبها للبناء، وإحضارها من المقالع على ظهور الحمير.

سقفوا المنازل بواسطة خشب الحور، الذي يجلبونه من السخنة والقنية، حيث يضعون فوقه طبقة من القصيب المترابط ليمسك بالطين، الذي يكون الطبقة العليا لحفظ المنزل من ماء الشتاء.. يضعون تحت خشب السقف جسر حديد يسمونه «دامر».. وهو من مخلفات سكة الخط الحديدي الحجازي.. فالأتراك العثمانيون تركوا الكثير منها خلال الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى.. واستفادوا من الحجارة المستطيلة لقفل قنطرة الباب من الأعلى.. ويسمون هذا الحجر «الحنت» (لم أجد له تفسيراً في اللغة)، وهم يثبتونه على سلّم خشبي على الأرض، ثم يسحبونه بالحبال حتى يستقر

مكانه.. وغالباً ما يعاد تطيين سطح الغرفة من جديد كل عام (حتى ظهر الإسمنت في الأربعينات من القرن العشرين).. وهم يمزجون التراب بالتبن لإنتاج طينة متماسكة، كانوا في بعض الأحيان يصنعون منها الطوب (اللبن)؛ لبناء منازل في الأراضي المنخفضة (كما هو الحال في أبو الصلّيح) بواسطة قوالب خاصة من الخشب.. ولكل غرفة مصرف للماء على سطحها يسمى «مزراب»، وهو قطعة من التنك تبرز خارج السطح، وغالباً ما يضعون برميلاً تحتها في الشتاء، أو يوجهون مسيلها على الأرض نحو بئر صغيرة داخل الحوش؛ وذلك لخزن ماء الشتاء.. ومن أمثالهم الشعبية: (هربت من تحت الدلف لتحت المزراب)، والمعنى أنني تحاشيت مصيبة صغيرة لأقع في مصيبة أكبر منها.

عادة ما تكون غرفة المخزن مثقوبة من زاوية سقفها قرب الجدار.. ويسمون هذه الفتحة «الروزنة»، وهي مخصصة لإفراغ التبن الذي ينتج عن البيادر، ويستعملونه طعاماً لمواشيهم بعد أن يضيفوا إليه الشعير.

بنى قسم من العثمان والعلي والإبراهيم والجوابرة منازل مشابهة في أم الصليح، أغلبها لبن تراب (بحكم قربها من أراضيهم التي يزرعونها)، ولم ينقطعوا عن غريسا والقنية (قرية الزيود الثانية).. بينما بقي النواصرة، والبكور، والعباس، في حمامة، وشرقي المدور، وأراضي البويضة، والصهاة، والدقمسّة، وبئر المطوي، وأم بطيمة، واستقر الطحيمر والفقرا في العالوك والمصرة.

تميزت أشغال البناء بالتعاون بين الأقارب والجيران، فحينما يشرع أحدهم بحفر أساسات البيت يتلقى مساعدة في العمل، سواء في تكسير الصخور وحملها أم في عجن الطين لمونة البناء، كما تقوم النساء بمساعدة صاحبة الدار بجلب الماء من الآبار، وهذه العادة الحميدة المسماة «العونة» تمتد لتشمل حصاد الزروع (سنشرحها لاحقاً).

رغم وجود الكهوف الأثرية (مغارة) في غريسا فنادراً ما سكنها الناس.. طوروها لتصبح مخزناً للأعلاف والحبوب، أو زريبة للمواشي.. ومن أكبر هذه المغر حفرة كبيرة

جنوب البيادر الشرقية تسمى «الجيعة»، وهي تسمية شائعة في معظم مناطق البلقاء، وهناك حفرة مماثلة غربي القرية تسمى «مخفس النجم»، ويظهر من اسمها أنها تكونت بفعل شهاب نجمي سقط من السماء.

استغل سكان غريسا المنطقة الشرقية والغربية من الخرائب؛ لتكون بيادر يدرسون عليها مزروعاتهم، وبقيت الأراضي المحاذية للخرائب بلا إفراز وسميت «حوض البلد»، واتفق الزيود على زراعتها بالدور بين العشائر كل موسم، فوضت وسجلت بأسماء الأحفاد في نهاية القرن العشرين .

الجوار

الزيود فرقة من قبيلة بني حسن، ويضمها الحلف القبلي الواحد حسب تقاليد القبائل الأردنية... كانوا على علاقة جوار مع المشاقبة في الزنية، وقد تصاهروا معهم... تزوجت شعوانة الطالب المشاقبة من مقبل المعلا، وتزوجت صيتة الحسين الخوالدة من بلعما من سلمان المعلا... وزوج بعض الزيود بناتهم من رجال من بني حسن والبلقاء... وفي القنية تزوج بعض الزيود من نساء من قبائل جرش، كما هو حال راجح العلي الذي تزوج من إحدى بنات القواقزة.

وإذا أقيم حفل عرس عند العليمات والمشاقبة في ضواحي الزنية يسير عليه (يحضره) الكثير من الزيود.. يشاركون في السامر، ويأكلون من طعام القِرى، ويقدمون النقوط للعريس.. والحالة نفسها في أعراس الزيود التي يفد إليها جيرانهم.. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان أهالي غريسا يصدون أعداء القبيلة في الغزوات بفزعة يعلنها الصايح (المنذر) لأغلب قبائل بني حسن.

زرع الزيود أراضي للمشاقبة بالمشرك، وهو تقاسم صاحب الأرض مع الزارع لناتج

المحصول... وحينما يقام حفل عرس عند المشاقبة أو الخوالدة كان الزيود يحضرونه، والعكس بالعكس.

وفي المرويات الشعبية أن الحمايدة من البلقاء نهبوا أغنام الزيود من قرب السخنة ولحق بهم فرسان الزيود والمشاقبة واستردوا الأغنام.

كان الزيود يعيشون مجتمعاً عشائرياً متضامناً في قرية غريسا... وقد انعكس هذا على الحياة الزراعية والاقتصادية خاصة في سنوات القحط، حيث يبدو التكافل الاجتماعي بارزاً... فإذا قل القمح في منزل أحدهم، لا يتوانى عن طلبه من أحد الموسرين، وغالباً ما يحصل عليه... ذهب أحدهم إلى منزل بركة المعلا يطلب علبة قمح (نصف كيس) فسأله بركة لماذا لم تحضر معك بهيماً تحمل القمح عليه؟ أنت تهينني إذا ظننت أني سأعتذر منك ولا أعطيك... حمل بركة كيس قمح للسائل على بهيم من عنده.

منذ بدايات توطن الشيشان في السخنة تعايش معهم الزيود بحسن الجوار، وقد أبهرتهم عربة الشيشان التي تجرها الأبقار، ويحملون عليها زروعهم وأثقالهم.. ولكن الزيود لم يمتلكوا هذه العربة ولم يستعملوها.

كان الزيود القدماء يصفون سكان السخنة أنهم جيراننا التشاتشان.. فحسيّا التي يشرب منها أهالي غريسا في نهاية الصيف قريبة جداً من السخنة، التي اشتهرت بزراعة شجر الحور والقصيب (البوص).. اشتراه الزيود وسقفوا دورهم منه.

منذ البدايات بنى الشيشان مسجداً في السخنة.. في شهر رمضان كان أهالي غريسا يفطرون على صوت الأذان من مسجد السخنة.. فغريسا مرتفعة وهادئة من الضجيج.. ولحظة الإفطار كانوا ينصتون باهتمام وسكون حتى يسمعوا صوت مؤذن السخنة الجهور.. ومن الأقوال الشائعة عن التعايش بين بني حسن والشيشان قولهم: بني حسن ست قبائل وسابعهم الشيشان.

الزراعة والمواشي

كان سكان غريسا مجتمعاً فلاحياً رعوياً، جميعهم يملكون بيوت الشعر ليرحلوا بها (في فصل الربيع) مع أغنامهم نحو المراعي شرق الزرقاء السايح (مكان الجامعة الهاشمية). رجم الأطرم مكان مقبرة الهاشمية الحالي.. ورد في المرويات الشعبية عن الأطرم أنه كان فارساً متميزاً يرفض إطاعة رفاقه بالانسحاب... ولذلك سموه الأطرم... وقد سقط قتيلاً في إحدى الغزوات ... سحبوه صوب المرتفع وبنوا فوق جثته رجم حجار كبير ما زالت بقاياه موجودة... مع الزمن نسي الناس اسم الفارس وبقي اللقب.

قبل الرحيل إلى المرباع كانوا يرسلون فارساً أو فارسين لاستكشاف الأراضي الخصبة وغدران المياه يسمونهم «الروادين»، مفردها رواد، الرائد في اللغة هو المستكشف، وفي الحديث الشريف: الرائد لا يكذب أهله.

بعد الربيع، يعودون إلى حصاد زروعهم ودرسها في مطلع فصل الصيف.. وبعد موسم الحصاد كانوا يرحلون إلى بلدتهم الثانية (القنية)، وفي زمن القحط كانوا ينتجعون مناطق جرش وجبل عجلون والأغوار الشمالية، وذات حين اجتازوا وادي الموجب إلى

أراضي الكرك المخصبة، كما روت الراحلة بندر المقبل في الخمسينات من القرن الماضي... كان الرحيل على الجمال والحمير.. فأغلب بيوت الزيود الموسرة تملك جملاً أو اثنين لحمل الأثقال، بما في ذلك رجادة الزرع من الحقل إلى البيدر (وحدهما سليم الفليح النواصرة امتلك ناقتين وجمل في القنية، وسعد الناصر ناقتين مع الحيران).. وحينما تحسنت الطرق الترابية استعملوا سيارات التركّ القادرة على السير عليها.

وثق الشاعر عيد أبو جابر الزيودي زمن القحط وهجرة القبيلة في حوارية شعرية بينه وبين وادي الظليل، حيث كانت أرض عيد على جانبه، وهي من أفضل الحواريات الشعرية بين الأرض والإنسان.... وتعطينا فكرة عن أحوال الأردنيين في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي... يقول عيد للوادي:

يا واد يا للي وطنا بيك

الله يمسيك بالخير

اسمع كلام وأنا ألاغيك

قبل لا يجاوبك غيري

جليت جواري لمن أشكيك

لله أمري وتدبيري

زولك يخوف ونس ما بيك

تشبه عيون المساعيري

يا واد لا شيل وأخليك

لعبيد وزبيد ومطيري

عتب عيد أبو جابر على الوادي الذي دفع جيرانه للرحيل بسبب المحل... ويصف الوادي أنه أصبح موحشاً لخلوه من السكان الذين رحلوا بحثاً عن الماء والمرعى، ويصيغ رد الوادي عليه ويقول:

يا عيد ما تلتفت حواليك

على بلعما والمداويري

بني حسن كلها مثليك

بس القرايا والنواطيري

قبلان وقبله حرس فوقيك

من عقب ما هم مخاتيري

وخلف خلى الواد من غربيك

خلى الولي يناغي الطيري

صوب الرياشي وأنا إللي أهديك

بالقول يضرب زواميري

لكن يا عيد افلح وأنا إللي أهديك

والصبر مفتاح للخير

وش رايك تدّين على داعيك

ينطوك رزمة دنانيري

يصف لنا الشاعر عيد أبو جابر على لسان الوادي حالة قبائل بني حسن في سنة ممحلة بالخمسينات من القرن الماضي، ويقول إنهم هجروا قراهم في بلعما والمدور، وتركوها للنواطير بعدما رحلوا إلى مناطق جرش وجبل عجلون بحثاً عن المراعي والمياه لمواشيهم.. وقد شملت تلك الرحلة الشاعر خلف الناصر المعلا، الذي كان يسكن شرق القنية وترك مقام الشيخ أحمد للطيور ... ويعطينا الشاعر فكرة عن حالة النواطير (مفردها ناطور، وأصلها سريانية بمعنى حارس الكرم)، فحينما يرحلون عن قراهم فترة معينة كانوا

يتركون عائلة أو عائلتين من أبناء القبيلة نواطير أو حراساً للحفاظ على أغراضهم.. وفي ذلك العام أصبح الراحل قبلان الحمد الجنادا حارساً لقرية غريسا في غياب سكانها... وهو رجل فاضل وراوية للأشعار والوقائع التي حدثت في طفولته وشبابه... والوادي يقترح على عيد أن يرهنه عند بنك الإقراض الزراعي، ويأخذ قرضاً عليه.

وش رايك تدّين على داعيك

ينطوك رزمة دنانيري

.... لكن عيداً كان غاضباً ويهدد ببيع الوادي ولو بفلس:

لا بيع دلك لو دلك بمتليك

يا بو الحواجب معيفيري

ولأن الأرض باقية، والناس إلى زوال عنها، فالوادي يرد على عيد ويقول:

مثلك مثايل مشو قبليك

والناس مرت طوابيري

إذا انت نازل الله يحييك

وإذا انت شايل مع الطيري

يبدأ الموسم الزراعي في غريسا خلال شهر تشرين الأول، حيث يحرثون الأرض بعد بذر الحب فيها ويسمونه «البدري»، بعضهم يحرث الأرض من دون بذار في تشرين الأول «كراب» ليفتح وجهها للمطر، وحينما يحرثها للبذار يسمونه «اثنا» بمعنى المرة الثانية، يستمر الحراث حتى نهاية تشرين الثاني حيث تسقط الأمطار، وفي شهر نيسان

يحرثون لزراعة القطاني (عدس، كرسنة، حمص) بالإضافة إلى القثائيات المتوفرة، لم يزرعوا الأشجار إلّا في بداية السبعينات من القرن العشرين، بمساعدة منظمة الأغذية والزراعة الدولية، وهم يحرثون الأرض بمحراث من الخشب الصلب يجلبونه من جرش أو عجلون، ويجره زوج من البقر يسمى «فدان»، أو فرس غير أصيلة «كديشة»، وغالباً ما تستأجر العائلات الغنية أكثر من حراث للعمل في أراضيها.

يتكون المحراث من عود خشب طويل في نهايته قائم من الخشب، يحمل السكة الحديدية التي تشق التراب في الحقل.. في بداية كل موسم يأخذون السكة إلى الحداد في الزرقاء أو جرش لحسمها (صقل رأسها المدبب)، وبرأس هذا المستطيل قطعة خشب صغيرة معترضة يسمونها «الكابوسة»، وهي التي يمسك بها الحرّاث ويضغطها بيديه حتى تبقى السكة داخل التراب، وأحياناً يرفع العود بها لتفادي صخرة أو حجر ثقيل يواجهه.. وبين المعترضة والعود قطعة خشب منحنية تبقي السكة منزلقة إلى الأمام، ويسمون هذه القطعة «الناطح».

يربط العود في مقدمته على قطعة خشب تتمركز فوق رقبتي الفدان المؤلف من زوج من البقر أو الحمير، وتسمى هذه القطعة «النير»، وفي بعض الأحيان يربطون بقرة وحماراً.. يربط رأس العود مع النير بمجدولة من الجلد تسمى «الشرعة»... وهي جدائل من الجلد مطواعة يربطون بها عود الحراث مع النير، الذي يركب على رقاب الفدان.... والفدان زوج من البقر يجر العود... وضعيف الحال كان فدانه حمارين.... وكما أن المحراث كان أهم مفصل في حياة الإنسان الذي تحول من الرعب والصيد إلى الزراعة.. فقد كان النير رمزاً للاستعباد والاستعمار بحياة الشعوب.. نير الاستعمار.. نير الاحتلال.. نير المرابي الذي كان يقرض الفلاح بالربا، ويمص دمه على مدار العام... في القاموس النِّيرُ: الخشبةُ المعترضةُ فوق عنقَي الثَّوْرَيْن المقرونين، لجرِّ المحراث أَو غيره.

قالوا في أمثالهم: «لولا الشرعة والعود ماصار الزرع ارجود»، والشرعة بطراوتها تتيح

للعود أن يتحرك خلف النير بسلاسة.. خاصة عندما يستدير الفدان داخل الحقل في ردّة أخرى، والردّة هي سطر الحراث من أول المعناة إلى آخرها، يمسك الحراث بيده عصا طويلة اسمها «المنساس».. يضرب بها الفدان ويوجهه داخل الأرض التي يحرثها، المعناة هي قطعة من الأرض يخطها الحرّاث بالسكة لتحديد المساحة التي سيبذرها ويحرثها.. وهو يبذر الحب من القمح أو الشعير نثراً بيده.

هناك نوعان من البذار الأول أعبا، وهو تكثيف الحب المبذور في الأرض، والثاني اذلال، وهو مباعدة البذار في الأرض... كانوا يحرثون الأرض الغشيمة بجانب الحقل.. يسمونها «الجلد»، ويزرعونها لتحمي الحقل من المواشي التي تلهيها عن دخول الحقل قبل أن يحذروا الراعي... وتصير الدقة بالجلد وتسلم الحقلة... الجلد كلمة عربية أصيلة تعني الأرض الصلبة الغليظة من غير حجار... يقول شارح القصيدة إنها سُمِّيتْ جلداً لأن الحفر فيها صعب... القصيدة للنابغة الذبياني واخترت لكم منها:

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياءِ، فالسَّنَدِ،

أقْوَتْ، وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ

وقفتُ فيها أُصَيْلانا أُسائلُها

عَيّتْ جواباً، وما بالرَّبعِ من أحدِ

إلاّ الأواريَّ لأياً ما أُبَيِّنُهَا،

والنُّؤي كالحَوْضِ بالمظلومة الجَلَدِ

رَدّت عليَه أقاصيهِ، ولبّدَهُ..

ضَرْبُ الوَّليدَة بِالمِسحاةِ فِي الثَّأدِ

ومن أمثالهم الشعبية: «جيزة حمدة براس المعناة»، وهو يعني الإصرار على أمر أو تقاضي أجر قبل بداية العمل.. وقصة المثل أن شاباً يتيماً نشأ في كنف عمه، الذي وعده

بالزواج من ابنته حمدة بعد نهاية الموسم، ثم ماطله مواسم كثيرة.. أصر الشاب في نهايتها على الزواج من حمدة قبل أن يحرث أول سطر في المعناة، ويسمون هذا السطر «تلم».

غالباً ما يبدأ الحرّاث يوم عمله في الصباح الباكر وينتهي قبيل الغروب... يبدأ موسم الحراث في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني ويسمونه «كراب»، وهو لفتح التربة حتى تتلقى المطر إذا جاء مبكراً.. ويسمون الجولة الثانية من الحراث «ثروي»، نسبة إلى ظهور كوكب الثريا في السماء.

يتوزع أفراد البيت الواحد على العمل فريقين: فريق يعتني بالأغنام، وفريق يعتني بالزراعة (الحرّاثين).. فيما يرحل معظمهم إلى أرض المشاريق يبقى الحراثون في القرية برعاية بعض العائلات من الأقارب، التي اعتادت الإقامة الدائمة فيها.. ولأن ليل الشتاء طويل، والحراثين يعودون مع الغروب؛ فقد كانوا يسهرون طويلاً في أحد منازل العائلات، على ضوء فانوس الكاز، كان أحد المتعلمين يقرأ بعضاً من سيرة بني هلال أو عنترة بن شداد أو الزير سالم.. وغالباً ما كانوا يستمتعون بروايات قبلان الحمد الجميلة أو أشعار خلف الناصر.

عدّ الدارسون لحياة الإنسان وتطورها أن المحراث الخشب كان أول آلة ثورية غيرت في حياة الإنسان... جاءت الثورة الثانية ـ بعد محرك البخار ـ بمحرك السيارة والقطار والطائرة.. فظهر المحراث الميكانيكي (التركتور)... وهو ينجز عمل أكثر من عشرة حراثين على الدواب... وسكّته لها قدرة على الغوص في باطن الأرض ضعف سكة محراث الخشب.

أول محراث ميكانيكي دخل الأردن على يد الشيخ مثقال الفايز في الأربعينات من القرن الماضي، فمثقال من أوائل البدو الرحل الذين اعتنوا بالزراعة وامتلاك الأراضي اقتداء بوالده سطام، الذي حرث وزرع وحصد قبل أي شيخ أو بدوي في المملكة... ولتركتور مثقال قصة يرويها مؤسس البنك العربي عبد الحميد شومان في مذكراته ...

كان مثقال قد شاهد التركتور في الشام.. أراد شراءه لكنه لا يستطيع دفع كامل ثمنه مع رسوم الجمارك ... اقترح عليه عبد الحميد شومان أنه يعطيه قرضاً من البنك العربي... قال له مثقال: أنا ما بقرب للربا ولا للفائدة... كان حل شومان أن سيشتري التركتور لنفسه، ويبيعه لمثقال بربح معين وعلى أقساط سنوية... وقال لمثقال: استشر قاضي القضاة واسأله... وفعلاً، القاضي أفتى لمثقال أن الله حلل البيع والشراء وحرّم الربا... وهكذا دخل التركتور إلى الأردن أول مرة... وبعدها قامت كثير من الأسر الفلاحية الأردنية باقتناء التركتورات.

ظهر التركتور في غريسا والقنية لأول مرة في نهاية الخمسينات من القرن الماضي، يحرث الأرض مقابل الأجر.. اكتشف القوم أنه (بالإضافة إلى الحراثة) مشروع سيارة نقل بعربة الترولّي التي يجرها خلفه.

في مطلع الستينات من القرن العشرين اشترته كثير من العائلات الموسرة من ملاك الأراضي.. استأجروا السواقين في البداية، ثم تعلم أولادهم قيادته... وهكذا تجولت سكّة التركتور بين القنية وغريسا وأم الصليح حتى العزيلا.. حملت شاحنته الزروع إلى البيدر والحبوب إلى السوق.. حمل بيوت الشعر مع الأثاث في رحيل المرباع ذهاباً وعودة.. زاحم الخيل على مربطها قرب الأطناب.. وزاحم الدواب على درس البيدر، فقد شغّل الدرّاسة التي تطحن القش في دقائق.. ثم اختفى من بيوت الموسرين بعد تفتت الملكية وتقسيمها بين الورثة، امتلكت بعض العائلات فيما بعد تركتورات تؤجر عملها في الحراثة وتشغيل الدرّاسة الميكانيكية مقابل الأجر.

يكمل أصحاب الأغنام المنتجعون في المشاريق ربيعهم ببيع البهم (ذكور الخراف فقط) من مواليد السنة الجديدة، يميّزونها بعلامة من المغرة الحمراء على ظهورها ليسهل عليهم فصلها عن باقي البهم، المغرة في اللغة: طين أحمر يصبغ به، يجلبونها إلى سوق الزرقاء، أو يبيعونها لتجار الحلال الذين يصلون إلى منازلهم.. كان الأثرياء منهم

يقسمون أغنامهم في موسم الولادة إلى قسمين، وكل قسم يرعى مع راعٍ وحده.. جلد ورغث... الجلد هي الأغنام الحائلة التي لم تلد...والرغث هي الغنم التي ولدت، وهم يفصلون مواليدها عنها بربطها داخل البيت بالربق طوال اليوم، وهو حبل طويل مثبت بالأرض من الطرف والنهاية، تتخلله عقد وأنشوطات على قدر رقبة الخروف... في القاموس، الرِّبْقُ بالكسر حبل فيه عدة عرا تشد به البهم.. الواحدة من العرا رِبْقَةٌ.. وفي الحديث: «خلع ربقة الإسلام من عنقه»، والجمع رِبَقٌ و أرْبَاقٌ... رَبَقْتُ الجدي أَرْبُقُهُ وأَرْبِقُهُ، إذا جعلتَ رأسَه في الرِبْقَة...ِ وفي أمثالهم يقولون: «مَا يمُوت بالرِّبْق إلاَّ عيَال الْغَنَم».. والمقصود أن الأغبياء والجبناء والضعفاء أشباه الخراف هم من يسقطون في الملّمات.

يحشرون المواليد الحديثة في سور دائري من الخيش داخل البيت تسمى «الدنّ»، وذلك حفاظاً عليها من البرد واعتداء الخراف الأكبر منها... بعد حلب الغنم يطلقون البهم تتقوّت على باقي الحليب بضروعها... أصل تسمية الرغث عربي فصيح، ويعني الشاة ذات اللبن... قال الشاعر معقر بن أوس بن حمار البارقي:

فجئنا للنعمى فكان ثوابه

رغوث ووطبا حازر مذقان

وظل ثلاثاً يسأل الحي ما يرى

يؤامرهم فينا له أملان

فإن كنت هذا الدهر لا بد شاكراً

فلا تثقن بالشكر في غطفان

يعود الشاويّه من أصحاب الأغنام إلى غريسا وجوارها حوالي منصف شهر نيسان.. ينزلون قرب زروعهم حول القرية انتظاراً لموسم الحصاد، الذي يبدأ بحصاد الشعير في أيار، فالشعير ينضج قبل القمح.. وغالباً ما يحصد الشعير باليد، ويسمون هذه الطريقة «حلاشة» أو «قلاعة».. والأراضي المزروعة بالشعير أقل بكثير من المزروعة بالقمح.. فالشعير للعلف، بينما القمح للطعام والبيع بالأسواق.. في الوقت نفسه يبدأ موسم جز صوف الأغنام ويسمونه «القصاص»، نسبة إلى أداة المقص الذي يجزون الصوف به.

ويجري جز الصوف على طريقة العونة.. يجتمع الجزّازون كل يوم في بيت يجزوّن صوف أغنامه، وتنتهي العملية بوليمة يقيمها صاحب الأغنام لهم، بعدها تختار صاحبة البيت حاجتها من الصوف للفراش والنسيج من مفارش ومزاود وحبال وأرسان، وما تبقى يجلبونه إلى الأسواق للبيع.. ولهم طقوسهم الخاصة في مساعدة العائلات الفقيرة وذلك بإعطائها عدداً من الشياه في موسم الربيع، تبقى معهم إلى الصيف للاستفادة من ألبانها، ويسمون هذه الطقوس «المنوحة»، ويجمعونها «منايح»، وإذا كان لدى أحدهم شياه قليلة فهو يودعها لدى أحد الرعاة مع الأغنام الكثيرة إلى أجل معين، ويسمون هذه الحالة «العدولة».

من شروط العدولة أو العدالة أن صاحب الحلال يعطي سمن الغنم ولبنها وصوفها للراعي أو المعدول عنده... ويعطيه الخرفان الذكور من بهمها... هذه الحالة تستمر لموسم أو موسمين حسب الاتفاق، وبعدها يستردها المالك ويتحاسب مع الطرف الآخر... على الأغلب يكون مالكو العدولة من التجار، أو أهل المدن غير المتفرغين للعناية بالغنم.

أثرت العدولة في ثقافتهم وخطابهم.. حين ينتقل طلاب القرية إلى المدينة لإكمال دراستهم... يسكن البعض مع أقاربهم الذين سكنوا المدينة بحكم الوظيفة أو العمل... كان الأب يمازحهم بقوله: خلوا لي إياه عندكم عدولة لما يخلّص هالسنة بالمدرسة... إذا اختلف زوج مع زوجته على أمر من أمور الحياة... تفطّ بيه وتقول:... أنا ماني عدولة عندك... وراي أهل ورجال... قلنا تفطّ بيه والمعنى تصيح بوجهه.

لهم طريقة لفطام البهم من صغار الغنم... يفطمونها مبكراً ليستفيدوا من حليب أمهاتها ... كانوا يُلبسون ضرع الشاة كيساً معلقاً بظهرها... يسمونه «الشملة»... الكلمة عربية فصيحة، وتعني كساء من صوف أو شعر يتغطى الرجل أو يتلفف فيه.

من مبالغاتهم لنزع الاعتراف من شخص ارتكب جريمة وما عليها شهود أنهم كانوا يحلفوه على الشملة والنملة... كانوا يرسمون دائرة على الأرض، يضعون فيها قطعة من بيت الشعر، أو من لباس المتهم، ويضعون جنبها نملة... يدخلونه الدائرة ويذكرون له صيغة يمين تختلف من قبيلة إلى أخرى... مثلاً: وحياة هالعود والرب المعبود والكاذب ما إله مولود إني ما صبت فلان ولا قتلته، أو إني ما سرقت الفرس الفلانية ولا شديت إلها رسن.

اهتم الزيود برعاة أغنامهم... اشترطوا في عرفهم العام أن الراعي لا يعرى ولا يحفى، مضمون باللباس والحذاء من معلمه أو معلانه، والمعلان صاحب الغنم... ولأن أغنامهم ترعى في أماكن بعيدة أحياناً عن البيت في حالة يسمونها «المعزب»، (جمعها عزبية)، والراعي يعزّب وحده مع الأغنام غالباً ما يتزود ببندقية لحمايتها... ويتزود بطعام لا يطبخ على النار فهو، مشغول بالغنم وحركتها... بالإضافة إلى التمر والسمن كانوا يزودون الراعي بالبكيلة... وهي قمح محمص على النار، ومطحون على الرحى، وجاهز للأكل مع الملح أو السكر، يخلطه الراعي بحليب من الغنم ويأكله... البكيلة بالمعنى نفسه كلمة عربية أصيلة.

قال العرب في أمثالهم: «غرثان فأبكلوا له»... وقصة المثل: إن رجلاً عاد من سفر في زمن الجاهلية وكان جائعاً لايعقل ولا يميّز... بشروه بولد ذكر، وولادة الذكر في عرب الجاهلية حدث مهم ومفرح... لكن الجوع أفقده التمييز فسأل: ولد يعني طعام؟؟ ... بعد أن أطعمه أهله بكيلة جاهزة سأل ماذا قلتم لي حينما وصلت؟.

ومن طعام الرعاة «الرثيّة»، وهي لبن رائب يضيف إليه الراعي حليباً من الغنم...

والرَّثِيئةُ : هي اللبن الحامض يُخْلَط بالحلو فيختّر. قالت العرب: إنَّ الرَّثيئةَ تَفْثأُ الغَضَب.. والفَثْء التسكينُ... زعموا أن رجلاً نزل بقوم وكان ساخِطاً عليهم، وكان مع سخطه جائعاً، فسَقَوْهُ الرثيئة، فسكن غضبه.

كثير من الرعاة يحتفظون بقطع من المساة، التي يحصلون عليها من ذبائح الخراف.. يضيفونها إلى الحليب في المرعى، ويصنعون جبناً طازجاً يأكلونه مع الخبز...

من حق صاحب الأغنام على الراعي أن يحافظ على الرعيّة ويسرحها بالمراعي الخصبة.. يتباهى راعي الغنم بالأغنام السمينة المتعافية، التي حافظ عليها طوال السنة كشهادة تسهل عمله عند باقي المعالين. وقد حدد الزيود أجرة الراعي السنوية بثلث المواليد من الأغنام التي يرعاها (ولهذا يبذل الراعي جهداً في اختيار مرعى الغنم لتلد بكثرة)، بالإضافة إلى فروة تقيه البرد، وحمار بخرج خيش يحمل لوازمه، وفيما بعد أضيف إلى هذه اللوازم راديو الترانزستور وتكلف المعلان ببطارياته.

إذا اختلف صاحب الأغنام مع الراعي على أجر أو فقدان خروف أو نعجة منها، غالباً ما يصل الأمر بينهم إلى أحد الخبراء من القبيلة لحل الخلاف... خصصت بعض القبائل الأردنية قضاة عشائريين للفصل في خلاف بين الراعي والمعلان يسمونه «قاضي الرعيان»، ومن أمثالهم: «الراعي يلزمه راعي» أي مراقبة من صاحب الأغنام...

من المرويات الشعبية عند الزيود حكاية عن راعي غنم سارح على سفوح قرية القنية الشرقية... لاحظ أن كبش الغنم ينفرد وحده في مغارة قريبة... لاحقه مرّة فاكتشف مياه تجري داخل المغارة... تفحّصها بمحجانه فسحبت المحجان في مجراها... دهش الراعي وساق أغنامه على نبع الفارعة يسقيها... وهناك زادت دهشته أكثر حينما وجد محجانه يسبح في النبع... قدر رواة الحكاية المسافة نحو اثنين كيلومتر بين رأس النبع بالجبال... وبين مصب الماء في الفارعة.

الصوف والشعر

أغلب أثاث بيوت الزيود في الماضي وحتى الخمسينات والستينات من القرن العشرين من صنع المرأة، التي تغزل الصوف خيوطاً، وتصنع منه الحبال، والمفارش، وشقاق البيت، وخرج الفرس، والفرشات، والمخدات، واللحف... غالباً ما يرحل الصوف مع أثاث البيت إلى القنية ليغسل في سيلها... يجفف ثم يندف داخل البيت بمطارق الرمان (عصي)، وغالباً ما يغزل على طريقة العونة، بحيث تتقاسمه الجارات والقريبات مساعدة لصاحبته.

قالوا في أمثالهم: «سبع مغازل تغزل والصيت لراعية البيت»... وقد رويت شرح المثل في الحكايا الأردنية كالتالي: «معروف جداً أنه لما تنوي وحدة من جداتنا على نسج بساطها أو مفرش أو خرج تبدأ من المادة الأساسية إللي هي الصوف... مجرد ما تكومه قدام البيت وتطرق فيه يفزعن إلها الجارات العوانات... كل وحدة منهن تجي بمغزلها وتأخذ كمشة صوف وتبدأ تغزل... أسبوع زمان والا الصوف كله صاير خيطان... طبعاً صاحب البيت يقول إلها الله يعطيك العافية... رغم أنه بيعرف أنه فيه سبع مغازل مع 14 إيد و 70 إصبع فركوا المغزل وأنجزوا الشغل... بعد عملية الغزل يحملونه إلى

الصبّاغ في الحصن أو جرش أو عمان أو السلط ليصبغه ألواناً حسب الطلب.. بعدها تمد صاحبة البيت شدّ النطي أمام المحرم حسب طول البساط أو الشقة التي تريد نسجها وذلك بعمودين من الخشب متباعدين تتوسطهما النيرة وتتعاون مع جاراتها على النسج المتعارف عليه في كل أنحاء العالم.. غالباً ما تغني النساجات خلال العمل.. تمتد فترة نسيج البساط أو الشقة إلى شهر أو أقل.. وقد حفظت البنات من الجدات تلك النقوش التي تتوسط البساط وأطرافه.

أما شقة البيت فهي من شعر الماعز الخالص.. يغزل وينسج بطريقة البساط نفسها، وهي طويلة حسب طول البيت، وتتألف البيوت الكبيرة من شقاق طويلة متصلة ببعضها بعضاً، ترفع على ثلاثة أو أربعة أو خمسة أعمدة يسمى العمود منها «الواسط»، والبيت الذي يقوم على واسط واحد يسمى «قطبة»، وعلى واسطين يسمى «أصهوة»، وعلى ثلاثة يسمى «مثولث»، ثم «مروبع»، ثم «مخومس» ... ولأن الماعز كان قليلاً في أغنامهم، كانوا يشترون شقاقاً جاهزة من السوق بشارع طلال بعمان، وسوق الحمّام بالسلط، وسوق جرش.

خلال فصل الصيف وفي كل عام يجري ترميم بيت الشعر بتجديد الشقاق ورتق التالف منها بالخيط والمخاط.. يشد البيت بحبال تسمى من الأمام «المقادم»، ومن الخلف «المياخر»، تربط الحبال بقطعة خشب صغيرة داخل (الطريجة) الطريقة، وهي نسيج شعر بعرض 20 سنتمتر يمتد من مقدمة البيت إلى مؤخرته، وتحمل الأعمدة في منتصفها.. وعلى الأطراف اليمنى واليسرى باليدين والكاسر في الوسط.. تثبت الحبال بأوتاد من الخشب تدق بالميجنة، وهي مهدّة من الخشب بيد خشب، استعملها الأردنيون في الماضي لتثبيت أوتاد بيت الشعر بالأرض... يستعملونها لدق أوتاد الخشب فقط... لأن أوتاد الحديد تتلفها... وغالباً ما يهدّدون بعضهم (على سبيل المزاح) بالضرب بالميجنة... يقولون: والله إن ما سكتت لأطبرك بهالميجنة... أطبرك استعاروها من الطبر، وهو فأس الحطّاب... واستعملوا الميجنة لدق سنابل القمح لاستخراج الحب منها.

بعض الناس كانت مونة بيته من الطحين تنتهي مع أول موسم الحصاد أو قبله... كانت صاحبة البيت تجمع السنابل من الحقل، تفرش شوالاً وتدق بالميجنة حتى تخرج الحب، ثم تقليه على الصاج قليّة (يلفظها الزيود جليّة بكسر الجيم)، أو تجرشه على الرحى طعاماً للأسرة... وقليّة القمح الجديد من الحقل مباشرة طيبة جداً... ميجنا آخرها نون وألف هي مطلع للموال الغنائي في شمال فلسطين وجنوب لبنان.. وهي أيضاً من مواويل العمل اليومي.. حصاد.. زراعة.. قطف زيتون وغيره.. مثل قولهم:

يا ميجنا ويا ميجنا ويا ميجانا

زهر البنفسج يا ربيع بلادنا

وبعض المغنين يتلاعبون بالكلمة ويقولون: يا من جنا، يعني: يا من جنا علي... والمقصود فيها شكوى عاطفية من طرف إلى طرف، الكلمتان ميجنة وميجنا لم أجد لهما ذكراً في القاموس.. لا شك أنهما وصف شعبي ليس له جذر في اللغة العربية الفصحى.

تسمى حبال البيت «الأطناب»، وتعدّ حدود البيت في حال الدخالة والاستجارة والاعتداء..

ينقسم البيت إلى شق كديوان للرجال واستقبال الضيوف.. تفصل بين الشق والمحرم ساحة طويلة من الغزل (صوف وشعر)، ترتبط بالمقدم والساحة التي تفصل أكثر من منامة في المحرم، ويبقى الطرف الأخير (الرفّة) لنار الطبخ والخبز والحطب.. وغالباً ما يسكن البيت الكبير أكثر من ست عائلات من الرجال والنساء والأطفال، ولوقت قريب كان يعيش في البيت الواحد أربعة أجيال، وحينما يستقل (يطلع) أحد أبناء العائلة ببيت وحده يقولون: بارك الله ببيت يطلع منه بيت.

يروي الراحل سالم البركة أنه عاد من رحلة تسوق في جرش إلى أهله في القنية، فوجد

عائلته في بيت شعر قطبة، بعيداً عن منزل والده، فقد قرر الوالد اطلاع الابن في بيت وحده، ويذكر أن باقي أولاد بركة (نصرالله ونصير) استمروا بالعيش مع والدهم في بيته الكبير حتى نهاية الخمسينات من القرن الماضي.

الزروع

كان العمل في الأرض حرفة دائمة للزيود، ومن لا يملك الأرض يزرع أراضي الآخرين مشاركة على طريقة المرابعة، يسمون الشريك مرابعي.. لأنه يزرع الأرض بنفسه وله ربع محصولها.. وعليه البذار، والحراثة، والعشابة، والحصاد، والدراس.. على البيدر يأخذ صاحب الأرض ثلاثة أرباع المحصول من قمح، أو شعير، أو قيطاني، أو غيره.. ولأن مساحات الأراضي كانت كثيرة بأيدي الملاك.. كان بعض المرابعية يشتري جزءاً من الأرض، ويدفع ثمنها نقداً من أثمان الحبوب التي جناها من الأرض نفسها خلال عمله فيها مرابعياً..

وتشير بعض الحكايات التي سمعناها من السلف أن الحاج سالم البركة طلع من بيت والده لا يملك إلّا زنوده.. وخلال سنوات أصبحت أملاكه أراضي يتوه فيها الماشي والخيال..

قبل موسم الحصاد يأخذون المناجل إلى الحداد في جرش أو الزرقاء لصقلها (سنّها)، ويحتاط كثير من الحصادين على قطعة من الجلد تغطي إبهام يده لتحميه من الشوك تسمى «مصبعانية».

يبدأ حصاد القمح في مطلع شهر حزيران، حيث يخرج جميع الرجال القادرين والأولاد بمناجلهم قبيل شروق الشمس لحصاد القمح، وهم يغنون خلال الحصاد:

منجلي من جلاه

راح للصايغ جلاه

منجلي يابو رزّة

وش جابك من بلاد غزّة

وقبيل الضحى، تحضر لهم إحدى نساء البيت طعام الإفطار فيغنون لها:

جابت الغدا والصبوح

ياخدّها برق يلوح

ويتغزلون بقطعة الذهب الصغيرة في أنف الفتاة بقولهم:

يا أم زميم لاويته

مادري كيف مساويته

أم زميم لاوي لي

ومعذبتك وأنت خطيّ

الصبوح في اللغة هو شرب اللبن صباحاً، أما شربة في المساء فيسمونه «الغبوق»، غالباً ما تجمع أكوام الزرع التي يحصدها الحصادون من قبل النساء (الغمارات)، ومفردها غمارة، وتسمى كومة السنابل المحصودة «الغمر» بكسر الغين.

تقوم امراة أو أكثر بجمع الزرع المحصود (شمالات مفردها شمال) في شباك من الحبال والخشب، يحملها الرجال على ظهر الجمل بمعدل شبكتين كل مرة، ويسوقه أحدهم إلى البيدر وتسمى هذه العملية «رجادة»، والرجل «رجّاد» بتشديد الجيم.

البيوت الفقيرة التي لا تملك الجمل كانت ترجد زرعها بالشليف، وهو كيسان مفتوحان من الجوانب وموصولان ببعضهما بعضاً بطريقة تجعل الزرع بكل قسم من الشليف على جانبي الدابة، فيما يبقى وسط الشليف على ظهرها...

وصف لنا الشاعر البلقاوي سالم القنصل حالة الفلاح الأردني بمطلع القرن العشرين وديونه للمرابين و الكومسيون والفريعة، التي هي حصة الفلاح من غرامة يدفعها داخل القرية أو خارجها... والبرطيل (الرشوة):

يا ويل سالم كل ما صار ديوان

مالي العذر بالأمور الشنيعة

من يوم صالح ع الدفاتر أو سلمان

ساووا الكمسيون إللي علينا قطيعة

الكل منهم يدعي له أبو جدان

بالزور أو همه ما ايعرفوا الشريعة

الوجدان خوف الله في قلب الإنسان

وانتو اتسلحتوه مكر أو خديعة

يا عين هلي الدمع من غير ميزان

مونة اعيالي ملُقوَه للفريعة

غدينا صلحة بس لا فلان وفلان

لو ندفع البرطيل ما له نفيعة

إللي سلم عن القوادم أو شلفان

وراه أمن الكيلات رعب أو قطيعة

على ثمن تالاف كيلو بقبّان

صرت أبو جابر بلّيا فلاحة وسيعة

حينما يتأخر أحدهم في حصاد زرعه يهرع له المجاورون ذات صباح بفزعة العونة، يكملون معه حصاد زرعه، ويقيم لهم وليمة غداء في بيته، وغالباً ما يبقي صاحب الأرض على قطعة من الزرع للمحتاجين يسمونها «جورعة»، وهي شائعة في الأردن منذ زمن قديم.. يقول شاعر الأردن عرار مصطفى وهبي التل:

يا «هبر» أقصر إنّها «جورعة»

مقصورة على الخب والإمعة

من مدّ ذراعا إلى سنبلها يفقد إصبعه

لا بارك الله بكاس الطلا ومن أترعه

صدقت ريب الدّهر قد ضعضعه

وأحفظ الناس له ضيّعه

هذي هي الدّنيا فمن يستطع

دفع أذاها عنه فليدفعه

كانت نساء العائلات الفقيرة والوافدة يجمعن سنابل القمح المتناثرة خلف الحصادين ويسمونهن «اللقاطات»، مفردها لقاطة، وكلما امتلأت قبضة اليد تحزم بعود زرع طري وتسمى «جرزة»، يعدن بها إلى البيت، ويستخرجن القمح بالدق بحجر أو ميجنة فوق قطعة خيش، في القاموس الجُرْزَةُ: الحُزْمة من القَتِّ والعشب.

اقتسم الزيود الأرض الصخرية شرق وغرب غريسا كبيادر لدرس الحبوب.. كانت البيادر الغربية لعشائر الزغيرين والفرهود والجنادا.. فيما كانت البيادر الشرقية للمعلا والعلي والإبراهيم.. وكل عائلة من عائلات هذه العشائر تحدد بيدرها بعلامات تفصلها عن بيادر الآخرين..

تدرس زروع غريسا على الدواب (أبقار- حَمير) التي تهرس الزرع بأظلافها وتسمى «قرن»، نسبة لقرن الحيوانات، بالحبل في مجموعة، أو على لوح من الخشب أسفله مليء بالحجارة البركانية السوداء، يجره فدان من البقر أو حماران أو فرس، ومن أغانيهم خلال الدراس:

يا حمرا يا لواحة

يا لونك لون التفاحة

وبين حين وآخر يقوم الدراس بتقليب الزرع بواسطة شاعوب من حديد، حتى يصبح الزرع تبنا وحباً، حينما يكتمل الدراس يجري تكويم الناتج من الزرع المهروس لتذريته في الهواء، حتى يفصل التبن عن الحب، وغالباً ما تتم التذرية في المساء المتأخر، حيث تخف حدة الرياح ليبقى التبن قريباً من البيدر، فيقوم بتذريته بواسطة مذراة خشبية، معرضاً إياه للريح، فينفصل التبن عن الحب، وهم يغنون خلال التذرية:

هب الهوا يا ذاري

كيلة بلا مصاري

هب الهوا يا ياسين

يا عذاب الدراسين

بعد التذرية ينظف القمح بالمسرد أو المقطف.. وقد وصفت هذه العملية مع أمثالها في الحكايا الأردنية تالياً: (الأردنيون الأوائل ما خلوا اشي بيوميات حياتهم إلّا ضربوا فيه المثل... قالوا عن الواحد إللي يزيد بالسالفة ويبهرها... يعني أجلكم الله يسولف سالفة نصها كذب... يقولوا عنه مقطف... المقطف زي الغربال لكن فتحاته كبيرة حتى ينزل التبن ويحفظ القش إللي مش مدروس كويس... ولأنه الغربال يحفظ القمح وينزل الحصو الزغير والزوان... وصفوا الكذاب بالمقطف... ووصفوا إللي يزيد شغلات قليلة بسالفة أو خبر وقالوا عنه فلان مثل المسرد... والجذر اللغوي من سرد الحكايا والقصص.. برضه المسرد زي الغربال لكن فتحاته أوسع من فتحات الغربال وأزغر من فتحات المقطف... بقى إنا نقول إنه المقطف والمسرد والغربال كانوا من لوازم البيت الأردني... أيام ما كانت حقول القمح على مد النظر... وبيادر الزرع مثل التلول).

يجري كيل القمح بالصاع وإفراغه في أكياس، ولهم طريقة طريفة في لفظ عدد الصاعات، فبدلاً من أربعة يقولون نربح، وبدلاً من سبعة يقولون سمحة.. يتجنبون لفظ سبعة لأنها شتيمة في عرفهم.. فحينما يوبخ الأب ابنه يقول له: سبعك أو هاك السبعة.. ويصفون بعض أولادهم تحبّباً بالمسبوع.. وهذه اللفظة أصيلة في اللغة العربية.. تداولها عرب الجاهلية والإسلام بالمعنى نفسه.. قالوا: سبّعه بمعنى شتمه..

وغالباً ما يعطون للسائل وعابر السبيل والأولاد الصغار كمية من القمح يسمونها «براكة»، نسبة إلى البركة.. ومن عاداتهم الحميدة طقس التبريك.. فعندما يمر أحدهم أو يقترب من صاحب بيدر تكوم قمحه بعد التذرية يدعو له بقوله: حلت البركة، ويأتي الجواب: منك يا وجه البركة.. يسمون شوال القمح أو الشعير الممتلئ «كيل»، ويلفظون جمعه ثلاثة أو أربعة تكيال (تتشيال)، ومن مفردات مكاييلهم: الصاع، والمد الذي يساوي صاعين، والعلبة التي تساوي أربعة صاعات، قالوا في أغانيهم خلال الحصاد:

منجلي من جلاه

راح للصايغ جلاه

ما جلاه إلا بعلبة

يا ليت العلبة عزاه

وقد ذكرت هذه المكاييل في صكوك الديون بين التاجر والفلاح، وظهرت في سجلات المحاكم الشرعية العثمانية، وهي تنظر في الخلافات والشكاوى بين الناس.

اهتم الزيود بخزن التبن اهتمامهم بخزن القمح، فهو أعلاف لمواشيهم، وخلطة للطين في صنع طوب اللبن ومونة البناء، إذا مر على خزنه عام يسمونه «دمير» بكسر الدال، أو «حويل» نسبه إلى الحول. كانوا يحملون التبن في أكياس خيش على ظهورهم من البيدر إلى سقف المخزن ويفرغونه في الروزنة، أما القمح فيحمل شواله اثنان من كل جانب إلى المخزن إذا كان قريباً، أو يحملونه على الحمير إذا كان المخزن بعيداً، وفي حالة الجلب إلى السوق كانوا يحملونه على ظهور الجمال، كانوا يطحنون حبوبهم في مطحنة القنية التي تدار بالماء، وفيما بعد طحنوا في بلعما بطاحونة تدار بمحرك ديزل وكانوا يسمونها «البابور»، نسبة إلى محرك القطار، وهم يقولون عن القطار الذي يسير على سكة الحديد «بابور»، واللفظة شائعة في البلقاء كلها... ضربوا أمثالا كثيرة عن الطاحونة... يقولون: كل الدروب تؤدي إلى الطاحونة.. والمقصود أنه لا غنى عن الطاحونة؛ ولهذا يعرف الجميع طرقها... وفي مجال التهديد والتوعد يقولون: «سيور حبّك يجي ع الطاحونة».. سيور بمعنى مصير، ويقصدون من المثل أنه لا بد أن تدفعك الحاجة إلى لقائي فآخذ حقي منك.

كانوا يجلبون حبوبهم إلى سوق جرش والسلط والزرقاء على ظهور الجمال والحمير.. حسب الأسعار الرائجة في تلك الأسواق.. وحينما وصلت أول سيارة إلى غريسا في الأربعينات من القرن الماضي حملت إنتاج بيادرهم .. وغالباً ما يكون بعضهم مديناً

لتجار الزرقاء أو جرش خلال الموسم الماضي.. ويسمى هذا الدين «الطلاع»، بحيث يدفع المدين إلى التاجر عيناً من القمح أو الشعير أو الخراف مقابل ما يأخذه من حاجات لبيته، بصرف النظر عن ثمن الحب أو الخروف في الموسم الذي يحل فيه السداد، وهي طريقة أقرب إلى الربا.. ويجري الطلاع بموجب صكوك دين على المدين وكفيله.. وغالباً ما يتحمل الكفيل وزر المكفول الذي عجز عن السداد.. ففي الثلاثينات من القرن الماضي كفل علي الفرهود أحدهم لدى أحد المرابين، وقد عجز المكفول عن سداد الدين في موعده، فقام المرابي بالحجز على مواشي علي الفرهود وأخذها سداداً للدين.. وأصبح بيت علي الفرهود بلا ثاغية لقوت أولاده، ولا راغية تحمل أثقال بيته حين الرحيل.

تفرّق أولاد علي الفرهود الستة للعمل في رعاية الأغنام لدى الآخرين، وحرث الحقول وحصادها.. وبعضهم ذهب للعمل في فلسطين حتى استردوا الثروة الضائعة في سنوات، وأصبح لدى علي الفرهود أغنام وفرس وجمل، وبيته القائم على أربعة أعمدة، وقد كان مقصداً للضيوف وعابري السبيل.. ومنذ ذلك الحين تردد بين أهالي غريسا المثل القائل: «بيت رجال ولا بيت مال)».

اشتهر المرابي في ضمير بني حسن حتى دخل أدبهم الشعبي، فالعاجز عن الزواج من محبوبته يرهن أرضه لدى المرابي مقابل نقود المهر وتكاليف الزواج، قال شاعرهم:

إللي إله هوية يا عيال

على فلان يرهن وطاة له

المـــاء

كانت القربة من أهم أدوات جلب الماء إلى منازل الزيود، من الينابيع وعيون الماء وآبار الجمع.. دبغوا جلود حيواناتهم من المتوفر من المواد الموجودة بين أيديهم... كانوا يدبغون الجلود بقشر الرمان اليابس وقشر البلوط... وهذا كله متوفر من رمان القنية وبلوطها (قبل أن يختفي البلوط من جبالها)، كانت بعض نساء الزيود يهرسن الدباغ في موقع يسمى «المدراسة» في منطقة الحوّطان، وهي صخرة منبسطة تجثم فوقها قطعة حجرية مدورة مثل الكرة، تحركها الدارسة فوق الدباغ حتى يتفتت، ومن ثم تنقع الدباغ في الماء ليلة كاملة، ثم ترشه على باطن الجلد وتطويه لمدة أسبوع، حتى يصبح الجلد مدبوغاً وصالحاً للاستعمال.

من المدبوغات التي تخاط بسيور من الجلد القربة لنقل الماء، والجود الذي يعادل نصف قربة، ويصنعونه من جلود الذبائح الصغيرة، والسعن الذي يحفظون الألبان فيه ويخضونها، وهذه كلها من جلود الماعز، والجاعد من جلود الغنم البيضاء بصوفها ويستعمل فراشاً... فيما بعد ظهرت الكيماويات الحديثة وأخذت مكان الرمان والبلوط.

كانت المرأة تحمل قرب الماء على الحمير، وأحياناً على ظهرها إذا كانت قربة واحدة أو جوداً، وغالباً ما توضع القربة تحت رفة البيت وتغطى ليبقى ماؤها بارداً، والقربة أيضاً تحمل إلى الحصادين في الحقل.. يغطونها بغمر زرع حتى تبقى مياهها باردة، ويشربون منها بين فينة وأخرى لأن عملية الحصاد تسبب العطش.

كانت غريسا تشرب من آبار الجمع التي حفرها الأنباط (بعد ترميمها)، وحفر الناس آباراً جديدة.. وجرى تسجيل كل بئر باسم صاحبها، مع مساحة دونم واحد حولها (بشكل دائري)، رغم وجود هذه البئر في أرض شخص آخر.

نحفر البئر بالإزميل والمهدة والفأس والطورية في أرض صخرية على شكل إجاصة، وتقصر من الداخل بالشيد، ويوضع على فوهتها حجر كبير مقوّر يسمونه «الخرزة»، غالباً ما يقفل بالحديد أو الخشب.. وبجانب كل بئر حوض حجري يسمونه «الران» أو «الحوض».. وهم ينشلون الماء منها بواسطة دلو من الكاوتشوك مربوط بحبل (رشأ)، ويسكبونه في الران لسقاية الأغنام والمواشي.

تداولوا أمثالاً وردت في أشعار البدو التي سمعوها في سهراتهم... مثل: «شربك من كفوف الرجال هماج»... هماج تعني الطعام المر..وأطلقوا اسم هماج على الماء المالح الذي يخالط المياه العذبة.. والمقصود بالمثل: إنّ حاجتك إلى الآخرين فيها مهانة ومذلة... ومن أشعارهم في هذا المثل قولهم:

إن كان ما شرب الفتى من يمينه

شربه من كفوف الرجال هماج

ويقول الشاعر سويلم الحميد:

إن كان ما توقف على الطي برشاك

ترى كف غيرك بالتقاطيش ما ترويك

الطي هو البئر المطوية داخلها بالحجارة حتى لا تردم بالتراب... وإحدى قرى الزيود في محافظة المفرق اسمها «بير المطوي»... نسبة إلى البئر المطوية بالحجارة... الرشا هو الحبل الذي يربطونه بالدلو لينشلوا الماء من البئر.. يسمون النشل من البئر «متح».. تشكو الورادة بقولها: انهد حيلي وأنا أمتح مية.. الكلمة عربية فصيحة.. فقد وردت أعرابيّة على بئر ماء وخاطبت الماتح الذي يملأ الدلاء في قاع البئر آملة بملء دلوها:

أيها الماتح دلونا دونكا

إني سمعت الناس يمدحونكا

يقولون خيرا ويمجدونكا

غالباً ما تنمو أواصر الصداقة والحب بين الشباب والصبايا على البئر، فالمرأة هي التي تجلب الماء من البئر.. وهم يحفرون قناتين طويلتين إلى يمين ويسار البئر لتوجيه ماء المطر نحوها.. وعادة ما يعيدون تنظيفها، وتنظيف البئر من الرواسب الطينية قبل فصل الشتاء.. ويسمون هذه العملية «اسمالة».. فلان سمل بئره ونظفها.

والطريف أن هذا المصطلح يعني قلع عيني الإنسان.. فقد حملت لنا المرويات التاريخية خشية حكام الكرك وحلب والموصل المماليك من أقاربهم في منافستهم على الولاية أو الخلافة، فكانوا يسملون عيونهم بدلاً من قتلهم.. وفي تاريخ المماليك كانوا يبعدون المنافسين عن طريقهم بالخنق الذي يؤدي إلى الموت.

من الآبار التي حفرت في غريسا وضواحيها أو رممت كأنقاض نبطية (على سبيل المثال وليس الحصر): بئر العلوة في الجانب الشمالي من غريسا على حدود حوض البلد، وكان يستغلها راشد الخليف وأولاده.. بئر الزغيرين خارج غريسا بمسافة مئتي متر على طريق القطشة، يستغلها سالم الصالح وأولاده.. بئر الفرهود جنوب غرب القرية، وهي

شراكة بين فلاح العاصي الفرهود وعليوي المنصور المعلا.. بئر فرج الأحمد العثمان في حوض البلد.. بئر الشمالات شرق الحوطان، وكان يستغلها حسين الخنيفس الشمالي.. بئر مسلم المحمد في أرض منصور المعلا بالقارمة.. بئر الإبراهيم غربي بئر الفرهود.. بئر الحمام غربي بئر الزغيرين، وكانت خاربة رغم كبر مساحتها.. بئر البركة في القطشة بأرض حسن الحامد.

حينما تجف الآبار في غريسا نهاية الصيف، تخرج مع الفجر قافلة من الجمال والحمير، تحمل القرب والروايا إلى حسيّا وعين النمرة قرب السخنة، وتعود إلى القرية ضحى النهار عن طريق رجم ابن مهيد، الذي يقع على حدود القرية الجديدة الشمالية.. لاشك أن ابن مهيد قتل أيام الغزو القبلي والصراع على مياه نهر الزرقاء، ودفن تحت الحجارة لعدم توفر الفؤوس مع رفاقه الغزاة...لا بد أنه من شيوخهم الكبار حتى يدفنوه، فالمهيد شيوخ قبيلة الفدعان من عنزة السورية، ومن عادة الغزاة البدو ترك قتلاهم طعاماً للوحوش والنسور، وهي عادة قديمة امتدت من الجاهلية إلى صدر الإسلام، فحينما استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في معركة أحد، وقف عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد مُثِّل به، فجعل ينظر إليه منظراً، لم يكن أوجع لقلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه، فقال: لولا أن تجد صفية فى نفسها لتركته حتى تأكله العافية، حتى يحشر من بطونها، فيتفرق في بطون الطير والسباع، فيبعثه الله مجتمعاً منها. ولكن حرصًا على مشاعر صفية بنت عبد المطلب أخت «حمزة» دفنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم. رواه أبو داود والترمذي وأحمد وحسّنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير.

وصف شعراء البدو قتلى معارك الغزو أنهم يتركون طعاماً للوحوش والطيور..

يقول خلف الأذن الشعلان:

تصرخ بها حدب السيوف المهاديف

وتفتح بها بقع النسور الأثامي

يا ذيب صوّت للنسور المجيعين

هرع الشيوخ مجدعه بالكزامي

ضبع المويرس عازمه ضبع حوران

افلح هذاك الله عما يوالي

يقول سعدون العواجي في رثاء ابنه عقاب:

يا ذيب أنا بوصيك لاتاكل الذيب

كم شيخ قوم كز لك ذراعه

وفي قصيدة أخرى يقول:

مرحوم يا نطاح وجه المغيـرات

إن جن كراديس السبايـا صفوفـي

مـرحوم يامشبع سباع مجيعــات

وعزالله إنه عقبكــم زاد خــوفي

الخيل تقفي من فعولك معيفات

تاطا شخانيب الرضم ماتشوفي

هذه من أشعار فحول الشعراء البدو عن مصير قتلى الغزو في الزمن الغابر، وقد تركوا آثارهم في الأردن كما هو حال رجم الأطرم قرب الجامعة الهاشمية، ورجم الصخري شرق الكرك، ورجم الشامي في محافظة مادبا..

تستغل النساء الورادات على عين حسيّا رحلتهن بغسل ملابس الأسرة بالمياه الجارية.. والبعض منهن يغسلن الصوف ويعدن حمله على الجمال والدواب، وذلك لشح الماء في

غريسا.. يسمى حمل البهيم من الماء «رحل قرب».. وهو قربتان متعادلتان فوق ظهر البهيم ومشدودتان بالحبال، وعلى الجمال رحل روايا.

في القنية كانت الورادات يجلبن الماء إلى المنازل بالطريقة نفسها، غالباً ما يخترن رأس النبع من الفارعة حيث تنبع المياه مباشرة من تحت الصخور، والمورد الثاني هو مشرع الورادات في منتصف سيل القنية المنحدر إلى نهر الزرقاء... وحول المشرع تقع أرض وبساتين سالم الصالح الزغيريين، وإلى الأعلى باتجاه الفارعة تقع أرض وبساتين بركة المعلا.. حوالي عام 1962 ظهر الماء العدّ في الآبار الإرتوازية الأولى.. كما هو الحال في مزرعة الدكتور ميشيل نجيب ليوس (أصبحت من أملاك المصفاة).. أعقبه عواد الصالح مع شريكه عبدالحميد سليمان بركات، ومحمد المقبل الراشد اليعقوب، وسلمان السويلم الفرهود وشركاؤه من آل معوض (من اللد أصلاً)، وسالم الصالح اليعقوب وأولاده علي وصالح، وقاسم الشهاب، هذه الآبار كلها تقع في المنطقة الواقعة بين العزيلا وطريق بلعما القديمة، ومنطقة مصنع الأنابيب قبل أم الصليح.

حوالي عام 1967 جاء فرع المحمد من المعلا بالشيخ يونس الشيشاني، وهو خبير عود للاستشعار عن بعد بحثاً عن الماء.. تجول في وادي المظينية (مكان غريسا الجديدة).. عين لهم مكان الماء في الموقع الحالي للبئر.. عندما تقدموا للترخيص بالحفر عين لهم مهندسو المياه مكاناً آخر يبعد مسافة عن الموقع الذي حدّده الشيخ يونس.. تجاوبوا مع طلب المهندسين.. وعندما جاءت الحفارة أنزلوها على الموقع الذي حدّده الشيخ يونس.. انبثق الماء على عمق 90 متراً وأصبح مهندسو الماء تحت الأمر الواقع..

بدأ فرع المحمد من المعلا بالرحيل فوراً من غريسا القديمة إلى وادي المظينية.. بعد أقل من عام حفر فرع الداوود من المعلا بئراً مماثلة في أرضهم، التي تحد أراضي المحمد من الجهة الغربية.. انبثق الماء فرحلوا من غريسا القديمة إلى وادي المظينية.. في البداية

سكنوا بيوت الشعر التي رحلت معهم.. وفيما بعد بنوا منازل من لبن التراب طورها الجيل التالي إلى الحجر والقرميد.. وهكذا اكتمل فراغ غريسا القديمة من سكانها (ما عدا محمد الفنخور، الذي سكن مدرسة غريسا القديمة، التي رحلت إلى الجديدة وأصبحت بلا سقوف)..

حفر الفرهود المجاورون للمعلا بئراً في أرضهم ولكن لم يكتب لها النجاح.. ومع هذا رحلوا إلى غريسا الجديدة وبنوا بيوتهم الحديثة فيها كما هو حال المعلا.. يجدر بنا أن نذكر عشرات العمال من هذه العشائر التي هجرت غريسا مبكراً إلى الهاشمية بحكم عملهم في مصفاة البترول..

كان بعض الزيود يقضون فصل الصيف في الشفا الغربي من القارمة إلى عراق الجير قرب بساتين الخضار، التي زرعوها في شهر نيسان وسط حقول القمح، حفاظاً عليها من المواشي، زرعوا البندورة والبطيخ والقثاء والشمام والباميا، والبعيدون عن بساتينهم يوظفون لها ناطوراً يسمونه «المخضّر»، يحرسها من المواشي والمتطفلين، وكان المخضّر يحرس أكثر من بستان.

بعد فترة الدراس كان بعض الزيود يرحلون إلى قريتهم الثانية القنية (تصغير قناة).. يبدأ وادي القنية من نبع الفارعة الذي يخرج من بين صخور صماء ما زالت كما هي.. ينحدر مع وادي القنية حتى يصل إلى منطقة طواحين العدوان (كان يملكها عدوان أخو رشيدة الحرحشي)، على جانبي الوادي حفرت قنوات (تراعي انحدار الماء) لسقاية البساتين المزروعة بأشجار الفواكه من تين ورمان وعنب وجوز وغيرها، بالإضافة إلى الحور الذي استعملوه خشباً للسقوف.. وزرع البعض حقليات الذرة الصفراء والبرسيم.

كانت عشائر الزيود جميعها في غريسا تملك مقسماً من البساتين، بالإضافة إلى

الأراضي البعل التي تبدأ من مرج الوقف على طريق جرش، وتنتهي في حنبزة قرب عيون خريسان..

اعتاد الزيود في القنية على تقسيم فترات السقاية للبساتين بمصطلح الدور.. وكان هذا الدور يشمل طاحونة الحبوب الوحيدة في القرية (مكانها بجانب الطريق المعبد الصاعد من السيل إلى طريق جرش).. ومن المفيد أن نذكر هنا أن جميع قرى الزيود ابتداءً من العزيلا (منطقة الجسر فوق سكة حديد الهاشمية) وحتى قرية القنية كانت من اختصاص مخفر المدور شمال القنية.. وكلها تتبع إدارياً لمتصرفية المفرق.. فساكن غريسا أو أم الصليح يسافر إلى المدور أو المفرق، إذا كان طرفاً في قضية يبحثها الحاكم الإداري..

ومن الطرائف عن تغيير هذا الاختصاص أن الراحل محمد العقلة الطحيمر وقف مع أحد موظفي وزارة الداخلية في العزيلا وقال له: انتبه أنت الآن تقف في أعمال متصرفية المفرق وليس متصرفية الزرقاء..

اعتاد سكان القنية من الزيود على التسوق من مدينة جرش، وسجلوا عقود زواجهم وميلاد أطفالهم فيها.. وكانت هناك ثقة كبيرة بين تجار جرش وأهالي القنية... كان المتسوق يأخذ حاجته من التاجر ويغادر من دون أن يدفع ثمنها (كما يروي رئيس الوزراء السابق عدنان بدران الذي قضى طفولته في جرش).. بعد موسم الحصاد يركب المجذوب وبعض تجار جرش بغالهم ويتجولون على عربان القنية.. يتمتعون بضيافتهم ويتقاضون ديونهم من الناس...

العمل والعمال

يخطئ من يظن أن العمل في مصفاة البترول كان جديداً أو طارئاً على الزيود، فقد كان لرجال قرية غريسة وأم الصليح والقنية (غير الموسرين) رحلتان في كل عام إلى فلسطين في فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، فبعد حراثة أراضيهم يسافرون سيراً على الأقدام إلى حيفا ويافا وملبس ومدن الساحل؛ للعمل في الموانئ والبيارات (حوالي 135 كيلو متر من غريسا).

كان طريقهم من غريسا والقنية إلى عجلون، ثم يهبطون إلى وادي الأردن، ويجتازون المخاضات المائية على النهر، ويواصلون رحلتهم إلى بيسان فالفولة والعفولة حتى قرية أم خالد (أصبح اسمها العبري ناتانيا)، ثم يتجهون إلى حيفا ويافا للعمل في الموانئ وبيارات الساحل.

من العمال الأوائل ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ قاسم الخشم، سالم البركة، عيد أبو جابر، فلاح العاصي، محمد اليعقوب، خليف الحامد، سمرين المنصور، عيد الحامد، خليف الشهاب، مدالله النواصرة، علي أحمد القاسم، علي السالم الصالح، مطلب العلي.

ومن الحوادث التي تروى عن ما واجهه بعضهم مع البوليس البريطاني في فلسطين، خلال ثورة البراق، وهو جزء من الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف.. وقد كان ادعاء اليهود ملكيته سبباً في التوتر الذي نجمت عنه اضطرابات عنيفة في آب من عام 1929 بين العرب واليهود في القدس، وفي أنحاء عديدة من فلسطين وهو ما عرف بـ ثورة البراق، فقد قبض البوليس على سالم البركة، و سمرين المنصور، وعلي الأحمد القاسم، وعلي السالم الصالح.. أفرج عنهم بعد التحقيق (ما عدا سمرين المنصور)، حيث عادوا إلى غريسا والقنية ريثما تهدأ الأحوال.

كان سمرين يسكن في حيفا مع عامل من منطقة بئر السبع، وهو هارب من ثأر قبلي في ديرته، ويحتاط على خنجر لحماية نفسه من طالبي الثأر، وخلال التفتيش عثر البوليس على الخنجر الذي يعد اقتناؤه جريمة عقوبتها السجن الطويل، ولأن سمرين كان شريكه في السكن فقد عُدَّ شريكاً في التستر على الخنجر، وقد أدى غيابه إلى حزن وقلق في عائلته، وبعد توقيف وتحقيق، وشهادات أصحاب عمله، أفرج عنه وعاد إلى أهله، توفي في يافا مدالله النواصرة ودفن في مقبرة مسجد حسن بك، وتقبل رفاقه العزاء في يافا، تزوج عبد الكريم المنصور سيدة من عرب السواحرة (عاشت معه في الهاشمية وتوفيت في نهاية القرن العشرين).

يعود عمال الزيود في بداية الصيف إلى حصاد زروعهم، ثم يسافرون مرة أخرى للعمل في فلسطين حتى موسم حراثة الأرض وزراعتها، كانت أجرة العامل في فلسطين بين خمسة وسبعة قروش يومياً.. وهو مبلغ معقول إذا أخذنا بعين الاعتبار أن سعر كيلوغرام لحم الضأن في الزرقاء عام 1930 كان ثمانية قروش فلسطينية حسب تسعير البلدية...

حينما وصلت أشغال شركة بترول العراق (I b c) إلى الرويشد والصفاوي عام 1933، التحق بالعمل في مشاريعها بعض رجال الزيود مثل عبد الكريم المنصور، وعيد أبو

جابر، الذي وثق لنا صورة عن المكان في أشعاره، وعمل مفلح الخلف السلمان في طريق رأس النقب عام 1959، وعمل آخرون في حراسة لوازم بناء الكلية العلمية الإسلامية بجبل عمان 1947، وهو العام الذي انقطع فيه الزيود عن رحلاتهم إلى فلسطين بسبب أحداث الصراع بين العرب واليهود والبريطانيين.

يذكر الراحل علاوي المنصور أنه تعرض لموقف صعب حينما حاول العودة إلى أهله من يافا، كان التفتيش دقيقاً ولم يكن يحمل هوية أو وثائق تدل على شخصيته، فاستجار بأحد تجار العقيلات (من السعودية أصلاً) الذي كان مغادراً بقافلته بموجب تصريح جماعي، ضمه العقيلي إلى قافلته حتى وصل إلى مدينة السلط.

عمل بعض رجال الزيود رعاة للأغنام وحراثين وحصادين، وكان القطروز شائعاً في بيوت الزيود الموسرين، وهو عامل وراعٍ للأبقار وحصاد وحطاب، وعمل آخرون في ورشات النافعة... الاسم الرسمي «النقطة الرابعة»... وهي عبارة عن مساعدات أمريكية للدول النامية والفقيرة... أصدرها الرئيس الأمريكي هاري ترومان سنة 1949، حينما انتخب للمرة الثانية رئيساً للولايات المتحدة... في الأردن كانت النقطة الرابعة أو النافعة... تشغل العمال في فتح الطرق لوصل الأرياف والبوادي بالمدن.

الطرق

كانت الطرق من وإلى غريسا والقنية ترابية للمشاة والدواب.. ينحدر الطريق من غريسا إلى الحوطان وعلي الزيرة حتى المظينيّة وأم الصليح، ومن هناك يتفرّع طريق إلى السخنة بينما يواصل طريق الزرقاء إلى مسيل وادي الضليل، ثم جسور سعيدا، ويقطع أرض المصفاة الحالية من الوسط حتى يصل إلى ناحية الزرقاء.. غالباً ما يسافرون عليه مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل والدواب.. وحينما يجلبون حبوبهم إلى سوق الزرقاء كانوا يحملونها على ظهور البعارين.. يؤمنون دوابهم في خان الدواب على مثلث شارع الملك حسين (شارع السعادة) قبالة صيدلية الزرقاء الحديثة حالياً.. يتكفل صاحب الخان بالمحافظة على الدابة وسقايتها وتقديم العلف لها مقابل قرش واحد.. وحينما ينتهون من البيع والشراء يأخذون دوابهم ويعودون إلى أم الصليح أو غريسا.. الطريق الثاني من غريسا إلى القارمة.. يتجه غرباً إلى أم سنامة، ثم ينحدر إلى شمال عيون خريسان، ويصعد إلى عراق المطوّق، ثم ينحدر إلى القنية.. الطريق الثالث من القنية صعوداً إلى دحل ثم بلدة المدور.. الطريق الرابع من القنية إلى مرج الوقف حتى مدينة جرش..

حينما ظهرت السيارة في الأردن لأول مرة أبهرت الناس بشكلها وسرعتها، حتى أنهم قالوا فيها الأشعار:

الهدس ياللي تبيعونه
بألفين نيرة ما هو غالي
بأرض السهل يوم تطلقونه
نجم تحدّر مع الجالي

ويقول الشاعر عيد أبو جابر:

من خلف ذا شديت هدس الحناتير
ما يحض من كثر السفر والمشاوير
إللي إليا زمر كما هفه الطير
أسرع من إللي مجهد بالرفيف

أطلق البدو عليها اسم «الهدس»، وسماها بعض الأردنيين «الحنتور»؛ لأن عجلاتها من الكاوتشوك الذي تعارفوا على تسميته «الحنتور».. وكان الإسكافي يصنع بعض الأحذية الرخيصة من الحنتور.. في المدن يسمونها «الترمبيل» أو «الطرمبيل»، والاسم مشتق من الكلمة الإنجليزية أتوموبيل وتعني السيارة.. من الجدير بالذكر أن أول سيارة دخلت منطقة شرق الأردن كانت صناعة ألمانية.. ركبها جمال باشا السفاح قائد الجيش العثماني الرابع في الحرب العالمية الأولى.. جاءت بالقطار إلى محطة عمان، وغادرت عبر طريق العربات التي تجرها الخيول إلى السلط.. وقد أخبرني الراحل خلف الفهد العدوان أنه شارك مع آخرين لتسهيل طريق وادي شعيب حتى تمر سيارة جمال باشا.. وقد حل ضيفاً على العدوان قبل أن يصعد على متنها إلى القدس.

في عهد الإمارة كانت أولى السيارات للأمير الملك المؤسس عبدالله الأول ابن الحسين.. تفاعل الأردنيون مع وسيلة النقل الصاعقة، وبدأت السيارات تظهر في عمان والسلط.. أخذت السيارة طريقها إلى غريسا عبر السهل القادم من الزرقاء إلى العزيلا وجسور سعيدا.. واجتازت وادي الضليل إلى أم الصليح.. ثم صعدت مع وادي المظينيّة باتجاه علي الزيرة.. كانت العقبة أمامها منطقة الحوطان الصخرية... أخذ سلمان المعلا الفأس على صهوة فرسه يومياً لتذليل الصخور أمام طريق السيارة.

جمع سالم الصالح الزغير الزيود في غريسا، واتفق معهم على فريعة مد قمح من كل بيدر، لتشغيل ورشة من العمال لتسهيل طريق الحوطان.. عمل الحجارون والعمال على تكسير الصخور وتمهيد المنعطفات حتى وصلت أول سيارة تركّ إلى غريسا.. كانت ثورة مثل ثورة الكهرباء كما وصفها المعمرون الذين عاصروها.. وذكروا أن شباب الزيود كانوا يتبارون في إدارة المناويل لتشغيلها.. فسيارات ذلك الزمن غير مزودة بجهاز التشغيل الذاتي (السلف) ويشتغل محركها لأول مرة على المناويل، وهي قطعة حديد يلفونها، فتشغل المحرك وتتحرك السيارة.

حمل الزيود حبوبهم ومرضاهم وكبار السن إلى الزرقاء بالسيارة.. وفيما بعد رحلوا ببيوت الشعر إلى مرباعهم في السايح وجوارها بواسطة السيارة.. جرى تسهيل الطريق إلى بئر الحمام، ثم القطشة، وأم صويوينة، وعراق الجير، ثم الوادي الذي يخلط مع عيون خريسان.. حفر الزيود الطريق من خريسان إلى القنية باستدارة من فوق بساتين حمبزة.. وفيما بعد وصلت السيارة إلى الفارعة.

لم يكن هناك مواصلات منتظمة بين القنية وغريسا والزرقاء.. كان الزيود في القنية يخرجون مع الفجر إلى المدور للركوب في باص جرش ـ المفرق.. ومن المفرق بالباصات إلى الزرقاء وعمان.. كان بعضهم يصطحب واحداً من أسرته لإعادة الفرس أو البهيم الذي أوصله إلى المدور.. وكانت الحالة نفسها مع سكان غريسا.. يسرون مع الفجر

إلى الزنية لركوب سيارة أحمد السعد التركّ (شاحنة).. وقد زودت بمقاعد خشبية في صندوقها لجلوس الركاب.

في الستينات من القرن العشرين سمحت الحكومة بترخيص سيارات اللاند روفر المشطوبة من الجيش لنقل الركاب بين القرى النائية والمدن... وهكذا ظهر أسطول النقل إلى غريسا والقنية بقيادة محمود الشرعاوي، وداوود السليمان، وأحمد الفليح، وعواد الناصر، وسالم الحواري.. فيما بعد جرى تعبيد الطريق بالأسفلت بعرض أقل من أربعة أمتار، حيث ظهر الباص وسيارة التاكسي.

الحياة الاجتماعية ـ الزواج

الاختلاط بين الجنسين شائع جداً في مجتمع الزيود الأوائل.. فالمرأة تشارك الر جل في الأعمال الموسمية؛ تخرج لحلب الأغنام وعمارة الزرع وجلب الماء والحطب.. هذا الفضاء المفتوح أثمر كثيراً من قصص الحب العذرية بين الرجل والمرأة.. كان الكثير من عشاق الزيود الأوائل يلتقون في طقس يسمى «التعليلة».. وهو يتم في بيت الفتاة التي لا يمكن أن تغادر بيت ذويها في الليل.. لا تتم التعليلة بين محبين إلّا بموعد مسبق.. يجري ترتيب هذا الموعد بإشارات عابرة أو مباشرة على موارد الماء، أو أماكن جمع الحطب، وفي الطريق لحلب الأغنام والعودة إلى المضارب، وكل هذه الأماكن ترتادها الفتاة خلال عملها اليومي..

حينما يتفق العاشقان على التعليلة تبقى الفتاة ساهرة بعد منتصف الليل انتظاراً له، وهي عادة ما تشغل نفسها ببعض شؤون البيت لتغطي على سهرها، أما الشاب فهو يبحث عن رفيق له، ليس للحماية فقط، بل لإثبات التعفف ونفي حالة الفحش عن التعليلة... فالرفيق يجلس للمراقبة، والعاشقان خلف رفة المحرم (جناح النساء) من

الخارج، وهما يشاهدانه ويشعران به.. وأغلب لحظات التعليلة هي حديث بين الشاب والفتاة، وإذا أحسا حركة داخل البيت أو من الخارج، حيث يحذرهما الرفيق، تنتهي التعليلة بمغادرة العاشق مع رفيقه وعودة الفتاة إلى فراشها، إذا اكتشف أمر العاشق من قبل أهل الفتاة، فهو يتعرض إلى الضرب بعيداً عن البيت، فهم لا يضربون رجلاً داخل بيتهم أو بين أطنابه، وهو ضرب موجع بصمت، فهم لا يرغبون بافتضاح أمر فتاتهم.. ويقصدون به تحذيراً لهذا العاشق الذي تبلّد حتى سلم نفسه للآخرين.. فكلهم مثله مرّوا بالتجربة نفسها.. ويعدّ خطؤه نقيصة على العشاق كما هو حال الفرسان في المعركة عندما يهرب أحدهم من لقاء الخصم، ولا تتلقى الفتاة العقوبة نفسها.. بل هم يوبخونها، ويوبخون والدتها التي لم تحرسها جيداً.

وصل إلينا من طرائف التعليلة أن أحد العشاق ترادف مع رفيقه فرساً لوالده، وهي مشهورة في مجتمع فرسان الزيود.. غادرا على صهوتها إلى مضارب حبيبته في مكان بعيد جداً عن القنية حيث يسكنان.. التقى محبوبته بحراسة رفيقه الذي أمسك رسن الفرس وجلس بعيداً كالعادة.. صهلت الفرس فاستيقظ صاحب البيت (والد الفتاة) وعرف الفرس من صهيلها.. ظن أن صاحبها جاء بعد منتصف الليل لأمر طارئ يخص القبيلة.. خرج إلى رفة الشق ليرحب بالفارس وينزله، فهم يمسكون رسن فرس ضيفهم حتى ينزل ثم يربطونها.. لم يجد الرجل فرساً ولا بعيراً خارج البيت.. تحرك خلف الرواق وسمع وقع حوافر الفرس مغادرة.. فقد سمعه الرفيق وأنذر العاشق برمي حصاة جعلت العاشق يركض ويرتدف الفرس مع رفيقه.. عاد الأب إلى المحرم وتفقد منام زوجته مع ابنته التي تصنّعت النوم.. كان لديه شك فاقترب برأسه من الفتاة وسمع وجيب قلبها.. في الصباح وبخ ابنته بشدة طالت أمها معها.. فيما بعد قالت الفتاة بيتين من شعر الهجيني شاعا في القبيلة وغنّتهما الفتيات في المحطاب والرعاة مع الأغنام.. تقول العاشقة:

ياغزّيل البر وش جابك

وش جابك من القنية

صارت لي هوشة على أسبابك

كن أهيلي عزّروا بيّا

غنى الزيود رجالاً ونساءً تلك الهجينية الأردنية الشائعة التي يشكو فيها العشاق من الحارسة العجوز عندما تشدد رقابتها على الفتاة، ويعيرونها بالشباب الضائع الذي مر بالتجربة نفسها:

يالله تسلط على النسوان

حتى العجايز تجازيهن

ما جربن لوعة الولهان

نسين عمير مضى بيهن

تحدث في بعض الأحيان مفارقات في التعليلة أشبه بحال زوجة المحارب التي تزوجت من ساعي البريد الذي كان يحضر لها رسائل زوجها.. يروون عن عاشق أجبرته الظروف على الابتعاد مع أغنامه إلى مراعٍ بعيدة لا يستطيع مغادرتها.. فأرسل رفيقه الحارس لإبلاغ المحبوبة بهذا الطارئ، وقع الرفيق في حب الفتاة وتزوجها قبل عودة العاشق مع أغنامه في الموسم التالي.. في اللغة (العلّة) بفتح العين: ما يتلهّى به بضم الياء الأولى، تعلل الرجل بالأمر: تلهى به واكتفى وكذلك التعلّة، (العلّ بفتح العين وضم اللام وتشديده) من يزور النساء كثيراً.

لا تنتهي كل حكايا الحب وكل ليالي التعليلة بالزواج، خاصة إذا كان المحبون من عشيرتين مختلفتين.. اعتاد الزيود على الزواج من ابنة العم.. وإذا حالت الظروف دون

ذلك فهم يتزوجون من القبائل البعيدة.. صاهروا الغرير الدعجة في ضواحي عمان.. وزوجوا من بناتهم للعليمات والمشاقبة.. فزوجة علي الزيرة الحديد من العليمات وأخوالها من الزيود.. تزوج مقبل المعلا من شعوانة الطالب المشاقبة.. وتعدّ تلك السيدة أم جميع فرع المحمد من عشيرة المعلا.. وتزوج عبد الكريم المنصور سيدة من عرب السواحرة في قضاء بيت لحم.. وتزوج سلمان المعلا من شقيقة شيخ الخوالدة عليان الحسين.

اعتاد الزيود على زواج البدل لأسباب اقتصادية .. وكثيراً ما اعتمدت حياة أسر هؤلاء الزوجات البديلات على الانسجام بين البدلاء.. فإذا حصل خلاف لدرجة الطلاق بين زوج وزوجته.. غالباً ما يشمل الزوجة البديلة بسبب التنافس على الكمال بين العائلتين.. ولهذا يتدخل الشيوخ والوجهاء لرأب الصدع قبل أن يحدث الطلاق وهم يعرفون عواقبه على الزوجة البديلة.

كانوا يدفعون مهر زوجاتهم من الأغنام أو الخيل أو البقر.. وفيما بعد من الأرض الملك.. ونادراً ما كانوا يدفعون المهر نقوداً.. لا يتم عقد القران إلّا بعد طلب من الجاهة سواء أكانت العروس ابنة عم أم غريبة.. الجاهة: وفد كبير من الناس يرأسه الشيخ أو أحد الوجهاء (يكون والد العروس على علم مسبق بموعد حضورها).. يستقبلها أهل الفتاة وبعد الترحيب يقدمون القهوة لكبيرها، الذي يضع الفنجان على الأرض مشعراً المعازيب أنه جاء مع رفاقه بطلب.. وهذا الطقس ينسحب على جاهة الصلحة بين الفرقاء سواء أكان في قضية قتل أم خلاف كبير.. يعلن كبير الجاهة أنه يطلب ابنة المضيف زوجة لفلان.. يعلن والد العريس القبول بقوله: «البنت بنتكم وعلى حسابكم».. يشرب كبير الجاهة الفنجان وتسكب القهوة لبقية الحضور، وتنطلق الزغاريد من محرم النساء اللواتي استقبلن بعض قريبات العريس.

لم يصل إلينا تقديم أي شيء للجاهة غير القهوة والشاي.. وإذا كانت الجاهة قادمة من مكان بعيد جداً فيستضيفها أحد رجال النزل على وليمة عشاء.. نذكر هذا ونحن

نشاهد تطور نفقات جاهة هذا الزمن، بالحلويات، والمشروبات، وقاعات الاحتفالات، أو السرادقات التي يجري فيها طلب العروس..

عادة ما تقوم أسرة العروس بتجهيز بيت الزوجية بالأثاث الذي يتكون من فرشات، ولحف، ومخدات صوف، وبساط ملون، وحقيبة كبيرة تسمى «المزودة» من نسيج العائلة.. وملابس شخصية للعروس حسب زمنها.. يضاف إليها العطور، والكحل، ودهان الند الشبيه بالفازلين، وصابون.. واعتادت العروس على اصطحاب بعض الحلو لزائراتها بعد الزواج.. وغالباً ما يكون حذاؤها جزمة جلد بساق تسمى «البيتونة البنّاوي».

تقام حفلات أعراسهم في موسم الصيف بعد درس الزرع وخزن الغلال، ومن العيب على العروس أن تقابل عريسها قبل ليلة الزفاف، فهي تتجنبه ما أمكنها ذلك (رغم أنهما التقيا كثيراً قبل الخطبة)، تتم الدعوة إلى حفل العرس بواسطة خيّال (فارس) يتجول على منازل القبيلة والجيران، يدعوهم إلى الحفل معيّناً يوم الشرّة، وهو أول أيام الحفل حيث ينشر بعض جهاز العرس على حبال البيت للزينة.

تضاف إلى جهاز العرس لبسة العنايا... وهي ثوب أو مدرقة أو حطة يشتريها الأب لأخواته وبناته وعماته بمناسبة زواج ابنه... قبل الزفاف بليلة تجتمع القريبات والجارات في بيت العروس لوداعها، وتمتاز السهرة بطقس الحناء ليدي العروس ومودعاتها، وإذا كانت العروس ستتزوج من رجل في مكان بعيد، غالباً ما تبكي من حين إلى آخر ناعية غربتها .. تغني الفتيات للعروس ليلة الحناء:

يمه يا يمة حشي لي قراميلي

طلعت من البيت ما ودعت أنا جيلي

يمة يا يمة حشي لي مخداتي

طلعت من البيت ما ودعت أنا خيّاتي

يجري إحضار العروس من منزل ذويها إلى منزل عريسها بقافلة من الجمال تسمى «الفاردة».. تركب العروس في هودج مستر من جهاته الأربع.. ترافقها في الهودج والدتها أو إحدى قريباتها.. غالباً ما يقود جمل الهودج شقيقها أو أحد أفراد عائلتها.. فيما تركب بقية النساء هوادج مماثلة.. وترافق الفاردة الخيل التي يتسابق عليها الفرسان، هذا إذا كانت المسافة بعيدة، أما إذا كانت قريبة فيسير الجميع على أقدامهم.. الرجال في المقدمة والنساء خلفهم، فيما يجري الفرسان شوط سباق حولهم، وتغني النساء من مفردات غناء الفاردة:

لا تقل نسيتك　　　يابي عواد لا تقل نسيتك

أول ما طريتك　　　أنت المبّدى وأول ما طريتك

وحينما تقترب الفاردة من منزل العروس يغنين بمدح والدها:

وسع الميدان يابي عبدالله وسع الميدان

الفرحة للصبيان العز لك والفرحة للصبيان

يقيم والد العروس غداء لجميع المشاركين والمشاركات في الفاردة، ثم يضع بيد العروس نقوداً تسمى «القوامة»، وتغني الفرادات:

قومي اطلعي قومي اطلعي لخالك

احنا حطين حقوق أبوك وخالك

عند خروج العروس من بيت أهلها يقوم أهل العريس بتقديم عباءة أو ثمنها لخال العروس وتسمى «عباة الخال»...

في طريق عودة الفاردة بالعروس لا بد من دعوتها (عزيمتها) من قبل أحد النازلين على طريقها.. يقوم الداعي بتقديم الطعام (مناسف) للجميع، وغالباً ما يكون هناك تفاهم مسبق على هذه الدعوة.

عادة ما كانت حفلة العرس تستمر ثلاث ليالٍ تنتهي بالزفاف، وتسمى الليلة الأولى «الشرّة» (أي نشر جزء من جهاز العروس على مقدمة بيت العريس، ويحضر هذه الحفلات أغلب أهالي القرية، يحضر المدعوون من الجنسين إلى حفلة العرس على شكل جماعات تسمى «السّرى» مشتقة من سرى يسري، وهم يبدأون الحداء معلنين عن قدومهم، ومن مفردات حدائهم:

يا لابس الجبة وارخي جنايبها

كم هوشة صارت حنا سبايبها

وبنية صاحت أخذنا حلايبها

ومفردات هذا الحداء تعود إلى أيام الغزو القبلي، وهي شائعة في جميع أنحاء سوريا الطبيعية... اعتاد الزيود تحية أصحاب الفرح بقولهم: بارك الله زيّهم، ويستقبلهم ذوو العريس بالزغاريد وإطلاق الرصاص في الهواء ترحيباً، وينضم الرجال منهم إلى حفلة السامر، فيما تتجه النساء إلى المحرم للمشاركة في الغناء.

كما في سامر البلقاء عامة، يبدأ سامر غريسة برقصة الدحية، وهي دائرة من الرجال يضربون أكفهم على إيقاع واحد وهم يصرخون (هي دحيّوه)، ويضبط إيقاعهم رجل يقابلهم في منتصف الدائرة، وتتصاعد هذه الحركة حتى يصرخ الرجل صرخة كبيرة تنهي الرقصة، ثم يبدأ أحدهم بحداء القصيد، ويتطوع اثنان أو أكثر للرد عليه، ويسمون هذا الحادي «البدّاع»، ولعل التسمية مشتقة من الإبداع، أما الرجال الذين يردون عليه فيسمون (الرواديد)، ونورد من الذاكرة بعض النصوص:

البداع: ***يا هيل البيت الجديد***

يا ليته مبروك وسعيد

الروادید: ***هي هلا به هي هلا***

لا يا حليفي يا ولد

البداع: ***يا هيل البيت المبني***

ياللي هواكم جذبني

الروادید: ***هي هلا به هي هلا***

لا يا حليفي يا ولد

غالباً ما تدخل حلبة السامر فتاة أو فتاتان بعباءة وعصا أو سيف، ترقصان رقصة الحويشي، ويتداول الرجال مراقصتهن منفردين، ويستأذن الراقص الجديد من سلفه بقوله: شيمة يا ولد.. ثم يدخل لمراقصة الحاشي.

يحث الشاعر الشعبي حملة السلاح على إطلاق النار في الهواء بقوله:

لا يا خيي يا فلان

سمعني حس الردنية

وإن كان الردنية معّية

سمعني حس الجيشّية

والردنية هي المسدس، والجيشية هي البندقية التي يستعملها الجيش العربي الأردني... وأوردها العلامة الراحل روكس بن زائد العزيزي في الجزء الأول من قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية صفحة 345 بقوله:

ردنية: ج رداني ـ فرد، مسدس: آلة حربية، والظاهر أنهم قديماً كانوا يضعونها في أردانهم الطويلة. والردنية أنواع كثيرة: أم صانتيتين SAINTETIAN: فرد فرنسي الصنع، بُرابلو: فرد ألماني الصنع، وبراوننج: بلجيكية الصنع، تطلق على عدة أنواع صغيرة، وطبنجة: سلاح قديم واسع الفوهة، وقربينة: سلاح قديم واسع الفوهة، يحشى بملح البارود وقطع الرصاص الرش الخردق، وكراداغ: الكلمة تركية أصلها: (قره طاغ) وهي الجبل الأسود؛ لأن هذا النوع من السلاح مصنوع في تلك الديار، وقد سمعت بعض الشيوخ يقول (كردغال) بدلاً من (قره طاغ). انتهى شرح العزيزي.

في القاموس فرد جمعها فرود، وهو قطعة السلاح التي أطلق عليها اسم مسدس (عامية).. وردن السلاح (بالفتح) بمعنى وقع بعضه على بعض فسمع له صوت...

ينتهي الحفل في الليلة الأخيرة بزفاف العروس والعريس إلى (البرزة)، وهي بيت صغير من الخيش يبنى قريباً من بيت أهل العريس، ويوضع أثاث العروس فيه.

يبدأ الزفاف بمرافقة النساء للعروس إلى البرزة وهن يغنين:

قال العزب لأمه

يا مرحبا بالضيف

ضيف يعلّلنا

طول الشتا والصيف

وبعدها مباشرة، تبدأ مجموعة من الرجال باصطحاب العريس إلى البرزة وهم يحدون:

يابو رشيدة قلبنا اليوم مجروح

جرح غميق وبالحشا مستظلي

جابوا الطبيب ومددوني على اللوح

قلت برخى لما عشيري يصلني

وقبيل إدخال العريس للبرزة يمازحه رفاقه بضربه على ظهره صارخين (ولد.. بكرك ولد)، ولكن العريس يهرب منهم إلى الداخل مسرعاً.

في الصباح يحضر والد العروس ذبيحة يذبحها قرب البرزة، يأكل منها العريس والعروس لحماً يسمونه «فطيرة البخت»، ثم يخرج العريس لبيت والده لتقبل التهاني والنقوط، الذي يتألف من نقود قليلة... ولكن أغلب المدعوين يحضرون أغناماً أو ماعزاً نقوطاً، وهي تذبح في اليوم نفسه طعاماً للمدعوين، ويسمون هذا الطعام «الجرا» والمقصود القرى، فأهالي غريسا مثل أغلب البلقاوية يلفظون القاف جيماً في بعض الجمل، يقولون الجرية بدلاً من القرية، والجربة بدلاً من القربة.

تبقى العروس في البرزة من ثلاثة أيام إلى أسبوع، ثم تقوم والدة العريس في اليوم الأخير بصنع طعام تدعو له الجارات، وتخرج العروس من البرزة لتمارس حياتها اليومية مثل غيرها، نادراً ما كان العريس يسكن بيتاً منفصلاً في العام الأول لزواجه وربما لأعوام كثيرة، كانت بعض بيوت أهالي غريسا تضم ثلاثة أو أربعة أجيال من العائلة.. تعيش في بعض البيوت زوجتان لصاحب البيت وثلاث زوجات لثلاثة من أولاده...

الختان

كان الزيود يقيمون حفلات الأفراح لختان أولادهم .. وكان الختان متأخراً حتى سن الرابعة أو الخامسة للطفل.. كان والد المختون يقيم مائدة غداء للمدعوين.. وكان الطفل يتلقى نقوطاً من المدعوين لا يتجاوز القروش القليلة.. كانت أم المختون تحجر عليه في البيت فور الانتهاء من الختان.. حتى لا يلعب مع أقرانه ويتعرض للمضايقات التي تؤدي إلى التهاب جرحه الذي غالباً ما تدهنه بالسمن.

النزالة

حينما تنزل عائلة سواء في بيت شعر أم في دار... يتوجب على أقرب الموجودين أن يدعو النزيل هذا وعائلته إلى طعام... بالأغلب تكون هذه الوليمة عشاء حتى يجتمع عليها رجال النزل الذين يكونون بالنهار خارج بيوتهم... هذه الحالة انسحبت على سكان القرى، وحملت تقاليدها إلى بعض المدن في نطاق أبناء القبيلة الواحدة... فإذا بنى أحدهم بيتاً جديداً ورحل بعائلته ليسكنه... يتوجب على أقرب جيرانه أن يقيم له وليمة

نزالة يدعو إليها الجيران والأقارب... بعد يومين أو ثلاثة يرد الضيف النزالة بوليمة مشابهة، يدعو إليها الموجودين نفسهم على وليمة إنزالته... أحياناً تكون الوليمة ذبيحة منسف... لكن بالظروف المتأخرة وبسبب الأحوال الاقتصادية اكتفوا بالدجاج.

الطعام واللباس

كان الزيود يأكلون مما يتوفر من إنتاج أرضهم من القمح في الدرجة الأولى.. طحين للخبز.. جريشة وهي من القمح المجروش على الرحى أو في الطاحونة.. قمح مقلي ومطحون يسمى «البكيلة».. بقوليات من العدس والحمص والفول.. في الدرجة الثانية تأتي الألبان بمشتقاتها من أغنامهم.. الحليب واللبن الرائب.. ولبن الشنينة المخيض الناتج عن فصل الزبدة عن الرائب.. الجبجب وهو صافي اللبن المخيض بعد تصفيته من المصل والماء.. والجبجب غموس يومي لأفراد العائلة يضيف إليه بعضهم السمن أو الزيت.. ومن الجبجب يصنعون الأقط أو الجميد الذي اعتادت صاحبة البيت على نشره فوق الشقاق السوداء ليجف ويخزن لأكثر من عام حتى يستعمل مريس شراب لطعامهم.

كان لهم طرق وأدوات لحفظ طعامهم، منها المدهنة نسبة إلى الدهن أو مشتقة منه، المدهنة هي وعاء جلد أكبر من القربة.. كانوا يحفظون فيه سمن الحلال، الذي يجنونه من موسم حليب أغنامهم... بعض الأثرياء منهم كان بيته يحتوي على مداهن من السمن...

والمدهنة تحوي من ثلاثين إلى خمسين كيلو غرام من السمن، وحمل هذه المدهنة وتفريغها صعب على ربة البيت.

كانت تستعمل ماعوناً أصغريسمى «المرو».. وهو جلد خروف أو جدي صغير سعته حوالي ثلاثة كيلو غرام، ومشغول مثل المدهنة أو القربة، تملؤه ربة البيت بالسمن، وتقدم منه حاجة أهل البيت أو الضيوف من الإدام.. الإدام هو السمن أو الزيت أو الدهن، يلفظونها إيدام.. ونادراً ما تخلو بيوتهم من خصف التمر الذي يأكلونه مع الخبز واللبن.. وأحياناً يطبخونه بالسمن.. ونادراً ما تخلو بيوتهم من دبس الرب، الذي يشترونه من الأسواق.. وفي أفراحهم يخلطونه بطحين القمح من دون طبخ، ويقدمونه في أولى ليالي الفرح (أعراس، ختان) في صحن كبير يسمونه «بسيسة»، ويؤكل بالإصبع.

اعتادت بيوت الزيود كما في بيوت بني حسن والبلقاوية على وجبة شبه يومية من العيش.. وهي جريشة قمح مطبوخة باللبن المخيض.. يضيف إليها بعض الموسرين السمن أو الزيت وتؤكل باليد.. وأحياناً يفت الخبز باللبن مع الإدام ويكون وجبة سريعة للعائلة.. من حين إلى آخر كانت ربة البيت تقدم وجبة الرشوف إلى عائلتها خاصة في الشتاء.. يتكون الرشوف من مريس لبن الجميد، والحمص، والعدس، والجريش، تضاف إليه أوراق الرقيطة التي تنبت في أراضيهم وتشبه السلق.. وكثيراً ما تقدم هذه الوجبة إلى ضيف طارئ من غير ضيوف الذبيحة.

حينما يستقبل الزيودي ضيفاً مهماً في القربى أو الوجاهة، يذبح له ذبيحة تطبخ منسف مع الخبز والرز كما في أيامنا هذه، ويكتفون بصب السمن على المنسف بدلاً من المكسرات.. وإذا عجز المضيف عن الذبيحة فهو يزيد من السمن على منسف بلا لحم.. يقولون في أمثالهم: «من أطعم السمن يكون كمن أطعم اللحم».

كان اللحم شحيحاً في الثلاثينات والأربعينات، خاصة في الأرياف والبوادي... خلال العام يأكلون اللحم في عيد الأضحى، حيث تكثر الأضاحي في بيوت القبيلة..

ويأكلونه إذا حل عليهم ضيف يستحق الذبيحة.. ويأكلونه في عشاء الخميس.. وحكاية الضيف والذبيحة تستحق أن تروى للدلالة على ندرة اللحم في طعامهم.. ذات حين عاد أحد الزيود من رحلة زار فيها بعضاً من أقاربه البعيدين.. في اليوم التالي جمع رجال النزل على وليمة منسف كبيرة.. قبل أن يصطف الرجال على المنسف تقدم المضيف وخط بعصاته خطاً حول المنسف.. أعلن أنه لن يتقدم أحد للأكل إلا إذا حلف يميناً غموساً أنه لن يرفض ذبيحة مضيفه إذا زاره وقرر المضيف أن يذبح له.. بعد اليمين والأكل تشوق الحاضرون إلى سماع السبب.. كان المعزب العائد من السفر قد حل ضيفاً على أحد أقاربه.. تحرك المضيف لإحضار ذبيحة لإكرام الرجل الذي أقسم أيماناً غليظة على رفضها والاكتفاء بطعام البيت.. فيما بعد سمع إحدى النساء في المحرم تقول: الله يقطع نصيبك يا هالضيف مثل ما قطعت نصيبنا من اللحم.

يروى عن الشيخ مثقال الفايز أنه زار فرعاً من قبيلته في مشاش حدرج بين باير والأزرق.. كان الفصل ربيعاً، والخراف كثيرة، وكان سعيد البوريني وكيل مثقال برفقته.. سلم على صاحب أول بيت زاره في طرف النزل.. دعاه صاحب البيت.. يا أبا سلطان غداك عندي.. تحرك مثقال وهو يقول: أسلم على باقي الناس وأرجع أتغدى عندك.. غادر مثقال مع رفيقه فيما تحرك صاحب البيت لإحضار الذبائح وتجهيز الغداء.. في البيت الثاني والثالث والعاشر تكررت الدعوة وتكرر قبولها.. دهش سعيد البوريني وسأل مثقال: كيف ستتوزع على هذه البيوت كلها التي بدأت تذبح؟ قال له مثقال: إن النساء لا يخرجن من بيوتهن مع أطفالهن إلى الولائم التي يخرج إليها الرجال.. ولهذا قبلت دعوة الجميع للغداء حتى تأكل جميع نسائهم اللحم، وسنعود إلى البيت الأول ونتغدى فيه.

هذا مجمل حجة الزيودي الذي فرض على جماعته عدم الاعتذار عن وليمة الذبيحة.. وقد سمعت هذه الحكاية من بعض الزيود الراحلين.. وفيما بعد سمعتها عن شخصيات مختلفة في مخافر البادية بوادي عربة ورم والجفر ودير الكهف في أقصى الشمال..

المناسبة اليتيمة عند الزيود بعد عيد الأضحى هي عشا الخميس.. موعده حوالي منتصف شهر نيسان من كل سنة... تكون مواليد الغنم متوفرة، ويقوم كل بيت بذبح خروف أو جدي من مواليد السنة... هذه الذبيحة خاصة بالأسرة، لأن الجميع يذبحون، وأغلبها تشوى على النار... غالباً ما يوزع من لحمها على المحتاجين الذين لم يذبحوا.. ويقومون في اليوم نفسه أو في اليوم التالي بإرسال قسم منها إلى البنات المتزوجات في القبيلة أو خارجها، وتسمى هذه الإرسالية «طعمة».

في غريسا اعتاد الناس على ذبيحة المشرك كل عام في غير مناسبة عشاء الخميس.. يتشاركون بثمن بقرة أو ثور يذبحونه، وكل بيت يأخذ من الذبيحة حصته بالاتفاق (جزو) يطبخ في البيت... الكلمة عربية صحيحة سواء ألفظت بالهمزة أم من دونها... قال الشاعر أبو العتاهية:

ما أن يطيب لذي الرعاية

للأيام لا لعب ولا لهو

إذا كان يطرب في مسرته

فيموت من أجزائه جزو

في ولائم الضيوف في بيوت الزيود وغالباً ما تكون وجبة عشاء.. يجلس الأطفال خلف المدعوين الذين يصطفون على المنسف.. يقوم كل رجل بإعطاء الطفل الجالس خلفه قطعة لحم.. فهم غالباً لا يغادرون المنسف إلا بعد الإجهاز على اللحم، ويتركون الفتيتة للأطفال.. في ولائم الأعراس تأكل النساء وبعض الأطفال من بقايا المنسف الذي أكل منه المدعوون.. وفيما بعد تفنن الزيود بتقديم مناسف كاملة للنساء كما هو حال الرجال.

لا يذبحون في عيد رمضان.. يكتفون بتقديم اللزاقيات، وهي عجين طري جداً من طحين القمح، يخبز على الصاج، ثم يخلط بالسمن والسكر ويؤكل باليد، وهي من أطعمة العيد التي اهتم بها الزيود القدماء، وهي شائعة في قبائل بني حسن والبلقاء ... الهيطلية... تقدم على الفطور لأن العيد يبدأ مبكراً بعد الصلاة مباشرة.. فلحم الأضاحي يتأخر لبعد الضحى... تبدأ النسوة صنع الهيطلية قبل يوم عرفة... يأخذن جريشة القمح ويمرسنها بأيديهن حتى يخرجن منها نشا القمح... ليلة عرفة، يطبخن الحليب مع نشا القمح والسكر حتى يختلط ويتماسك... يصب بعدها في صحن كبير(صحن المنسف عادة)، ويغطى حتى الصباح ... ويغدو شبيهاً بالمهلبية الموجودة الآن في الأسواق... عادة يقدم الصحن كما هو بعد أن يصبوا عليه السمن ويكون جاهزاً للأكل...

لباس الرجل

لبس الزيود مما يتوفر في أسواق السلط وإربد من لباس.. وتتفاوت أقمشة الألبسة بحسب ثراء لابسها.. وهناك نوعان من الألبسة.. **الأول**: لباس المناسبات والسفر إلى المدينة ومراجعة سرايا الدولة.. يتكون من طقم من قماش واحد.. ثوب أو مزنوك (قمباز) والسترة (جاكيت) وسروال أبيض، ويكون لباس الرأس قضاضة بيضاء مع عقال، (فيما بعد ظهر الشماغ الأحمر مع بدايات تكوين الجيش العربي الأردني).. ينتعلون أحذية جلدية بعضها بساق متوسط.. في فصل الشتاء يلبسون فروة من جلد الخروف تصل إلى الأقدام، فوقها جبة من القماش الثقيل كما هو في الأسواق حالياً.. والبعض يلبس فروة مماثلة تشبه السترة ولا يتعدى طولها الأرداف.. يلبس الموسرون العباءة، وهي رداء فضفاض ذو ألوان فاتحة بالصيف وغامقة في الشتاء، وتصنع من الحرير أو وبر الجمال، وهي خفيفة وفضفاضة وذات أكمام عريضة، وأحياناً يلبسها الرجل على الأكتاف.

الثاني: لباس الحركة والعمل.. يتكون من ثوب أو مزنوك (تنوعت أسماؤه في

الأردن بين قمباز وزبون)، وسروال مع سترة أو صديرية مع القضاضة البيضاء الملازمة للرأس.. فالزيود القدماء لا يكشفون عن رؤوسهم (يفرّعون) إلا في خلوة البيت.. يثبت السروال على الخصر بخيط داخل قماشة يسمونه «الدكة»، «دتشة»، ومن أمثالهم على الوفاق والاتفاق يقولون: فلان وفلان سروالين بدكة.

يلبس أولادهم القضاضة ملفوفة حول الرقبة وحينما يكبرون قبيل سن المراهقة يلبسون العقال.. غالباً ما يرفعون شليل المزنوك، ويعلقونه بالحزام خلال العمل؛ لتسهل حركتهم.. وللحزام رموز كثيرة في ثقافتهم.. حينما يقترح أحدهم حل مشكلة لآخر يقول صاحب المشكلة: إيدي بحزامك.. حينما يستبد أحدهم برأيه في قضية معينة يسألونه أنت بايش متحزم؟ ينصحون بعضهم لاختيار صحبة الرجل الكامل ومساعدته بقولهم: فلان نشمي تحزم بيه.. يصفون الرجل الذي يسير بلا حزام أنه رفالي ويقولون: هذاك هو مرفّل ببيته، والمقصود أنه في حالة سكون واستراحة.. ينتعلون الزربول، وهو حذاء من الجلد، نعله من الكاوتشوك، يزرر عادة بالخيوط أو الإبزيم.

كانوا يهتمون بالحذاء بحيث يخلعونه في الأرض السهلة، ويحملونه حفاظاً على نعله من الاهتراء ويمشون حفاة.. وهذه العادة عربية شاملة من المحيط إلى الخليج.. تناقلوا في دواوينهم حكاية عبود الدغيلي في مخفر المدور.. الدغيلي شاعر ناقد سليط اللسان.. صب غضبه في قصيدة على أحد الشيوخ.. اشتكى الشيخ لقائد مخفر المدور الذي جلب الدغيلي، أوقفه يوماً وجعله ينظف إسطبل خيل الدرك.. في الصباح هدده بعقوبة كبيرة إذا عاد إلى هجاء الشيوخ وأطلق سراحه.. خرج الدغيلي من المخفر معلقاً حذاءه بمحجانه (عصاته).. حينما وصل إلى خفير البوابة توقف وقال له:

ولد الدغيلي يقولي

قايد مخفركم رايته زربولي

يظهر أن الخفير يكره قائد المخفر ـ فترك الدغيلي يمضي بسلام مع زربوله ومحجانه.

للكوفية أو القضاضة والعقال على الرأس تقاليد وعادات كثيرة.. في حالة الاستجارة (الدخالة) من شخص إلى آخر.. يقترب المستجير من صاحب البيت نازعاً قضاضته وعقاله ويقول: جيتك فارع دارع أنا بالله وبيك.. فيما بعد تدخل العلماء وصححوها: أنا بالله ثم بيك.. يرمي الرجل قضاضته وعقاله خلال المشاجرة.. وفي الديوان عندما يحتدون متحمسين كان البعض يرمي بكوفيته وعقاله على الأرض قائلاً: لحّد وأنا أخو فلانة.. غالباً ما ينخون وينتخون باسم شقيقاتهم.. ويضيفون لهذه النخوة اسم ناقتهم التي اشتهر اسمها بين القبائل.. نخوة العدوان راعي الضبطا.. نخوة بني حسن راعي المليحاء.. نخوة الزيود راعي الدغماء.

تستعمل القضاضة لثاماً يغطي الفم والأنف اتقاءً للغبار، وفي حقول الحصاد المتربة، وفي البرد الشديد، وفي حالة الغضب من شخص أو جماعة يقابلونهم صدفة.. وغالباً ما يطرح السؤال.. أنت على إيش متلصم؟؟ شيل هاللصمة غاد (يلفظون الثاء صاداً)، في الصلحة على الدم يأتي أقرب شخص لأسرة القاتل إلى بيت الصلحة، وقد وضع عقاله في رقبته دلالة على ذله أمام أهل القتيل.. بعد الانتهاء من مراسيم ذكر الدية وشروط الصلح يقوم ولي الدم بإلباس العقال لقريب القاتل متنازلاً عن جزء من الدية.. في حالة الاستجارة (الدخالة) يقوم المستجير برفع عقاله، ويضعه في رقبة الرجل الذي يطمح إلى إجارته وتحصيل حقه.

تدلنا الوثائق المصورة أن العقال كان أغلظ بكثير من العقال الذي يرتدونه حالياً.. من عادات الاستجارة (الدخالة) يقوم المستجير بعقد طرف كوفية المجير ويقول: ترى أنا ما قصدت غيرك تحل لي المشكلة أو تساعدني على تحصيل حقي.. وغالباً ما تبقى العقدة في قضاضة المجير حتى يحل المشكلة.. من المعيب على الرجل وحتى الولد أن يخلع القضاضة عن رأسه في المجلس بلا سبب قاهر.. ولأن الأغلب لا يملكون إلا قضاضة واحدة فهم يخلعونها للغسيل، ويجلسون في البيت حتى تجف ثم يلبسونها.. وبلغ الأمر ببعضهم أنه يلبس مدرقة زوجته حتى يجف ثوبه بعد الغسيل.

في الأزمان البعيدة، اعتادوا على لباس الجناد فوق الثوب أو المزنوك، وهو حزام يربط على الصدر بشكل متصالب، مصنوع من الجلد البني أو الأسود، وله جيوب يوضع فيها الرصاص، بالإضافة إلى جراب يتدلى من العنق إلى الخصر يحفظ فيه المسدس.. عادة يلفون المسدس بمنديل ملون يتدلى طرفه ليصبح من زينة اللباس.

في منتصف الجناد توضع الشبرية التي اعتادوا على حملها في الجناد أو الحزام، وهي من الأسلحة البيضاء التي يحرصون على اقتنائها.. ومن أشهر شباريهم «الهوشانية» نسبة إلى صانعها هوشان في سوق طلال بعمان.. كانوا يتسلحون ببندقية الدك، التي تعبأ بالبارود الأسود من فوهتها، ثم توضع الرصاصة فوق البارود.. يجري إطلاق الرصاصة بإشعال فتيل بجانب مقبض البندقية ويأخذ ثواني حتى تنطلق الرصاصة.. فيما بعد ظهرت البندقية الألمانية ثم الإنجليزية.. ومن أسماء مسدساتهم: برابيلو، وكرداغ، وأبو طاحونة (اسمث إنجليزي).. وفيما بعد ظهر المسدس الأوتوماتيكي الحديث.

لباس المرأة

يغلب اللون الأسود على ثوب المرأة (المدرقة)، جمعها (مدارق) ... وأفضل أنواع قماشه هو الملس، وفيما بعد ظهر قماش الحبر وهو أكثر نعومة ثم المخمل .. تطعم جوانب الثوب بقماش أزرق أو أبيض، يصبغ بالنيلة المعروفة، وهو يبدأ قريباً من الإبط ثم يتسع ببطء حتى يصل أسفل الثوب، الذي يسمونه «الشليل» ويسمى «بنائق»، ومفردها بنيقة، ويلفظون القاف جيما فيها فينطقونها بنايج ومفردها بنيجة.... تلوّن استدارة أسفل الثوب بالقماش الأزرق نفسه في خطين أو ثلاثة، يتوسطان تطريز الثوب على القماش الأسود، وهذا التطريز لا يشمل القماش الذي يخاط في الثوب على سبيل الزينة.

والشليل لثوب الرجل وثوب المرأة.. وهم غالباً ما يحملون فيه الحبوب أو التبن أو الأغراض التي يصعب حملها باليد، بعد أن يثنوه للأعلى باليدين... وإذا أراد أحدهم أن يتحدى الآخر نافياً أنه أخطأ بأمر ما فهو يقول: (هذا شليلي)، أي أنه إذا كان لديك مثلبة علي فأخبر بها.. ونفض الشليل عندهم تعني البراءة أو عدم الاعتراف بالأمر.. وفلان نفض شليله يعني تبرأ أو أنكر الأمر.. تطرز المدرقة بالخيوط الملونة، وغالباً ما يتركز التطريز على الجيب، وهو صدر الثوب مما يلي الرقبة.

ومن أشعارهم التي يغنونها على لحن الهجيني يقولون:

يا علني بالبحر بطـــة

وأرافق الزين ســـباح

بأرض الخلا نلعب الزقطة

ونرشرش الجيب برياح

وتغلب على شكل التطريز وخطوطه تلك الخطوط والرسومات الموجودة على مفارش الغزل التي تنسجها المرأة، وهي مثلثات غير مكتملة وتسمى «عريجاً»..

وهناك رسم يحاكي شكل السنابل، كما يغلب اللون الأحمر أو الأصفرعلى الخيوط، وتمتد خطوط رفيعة من التطريز ابتداء من الصدر والجوانب حتى الشليل، ثم تتسع خيوط التطريز على استدارة الشليل كاملاً ويسمونه «الداير».

وجيب المدرقة عرضة للتمزيق في الكوارث والمصائب التي تنزل بالأسرة أو القبيلة، فعند وفاة أو مقتل عزيز تقوم المرأة بشق جيبها حزناً عليه، وإذا بلي رجل بمصيبة أو تعرض لظروف قاهرة فهو يفعل الشيء نفسه، يمزق صدر ثوبه، وفي أمثالهم يقولون: «لحقت لشق الجيب»..

وترتدي تحت المدرقة قميصاً ملوناً يستر الرقبة، وتلبس الفتيات منديلاً يغطي قسماً من الرأس يعقد من الخلف، وعندما تتزوج الفتاة ترتدي العصبة السوداء أو حطة الحرير مع الملفع (الخمار الأسود)، وفي السابق كانت تتزين بقلائد وخواتم الفضة، وفيما بعد بقلادة الذهب المكونة من عدة ليرات عثمانية أو فرنسية أو إنجليزية.

تلبس المرأة الكبيرة بالسن مدرقة بضعفي طولها، تطوى فوق الخصر بواسطة حزام فتصبح بثلاث طبقات، وهي تختلف عن الخلقة السلطية والفحيصية بأنها من قماش

واحد، وهو غالباً ما يكون من الحبر الأسود، وهذه المدرقة مطرزة ابتداء من الجيب وحول الرقبة والبنائق حتى الشليل، مع خط على الكتف يتصل حتى الأردان الطويلة التي تتدلّى من نهاية اليدين حتى تكاد أن تصل إلى القدمين، وغالباً ما تعقد هذه الأردان خلف الظهر فيبرز جزء من القميص الذي يغطي اليدين، وإذا صادفت المرأة غريباً تجعل من هذه الأردان قناعاً حول رأسها، وتسمى في هذه الحالة «قنعة» بكسر القاف، والمرأة مقنّعة، ويقولون في وصفهم للجبان: «فلان ما ينطح مقنعة»، أي أنه لا يستطيع مواجهة امرأة فكيف له بمواجهة الرجال؟.

يبدأ من أسفل الجيب خط من النقود المعدنية العثمانية (والفلسطينية فيما بعد) حتى الشليل، وهي مخاطة (بعد ثقبها) قطعة فوق قطعة يحسبها الناظر صفاً واحداً، ويسمع رنين احتكاكها ببعضها بعضاً عند الحركة وتسمى «قود البوش»، والبوش هو قطيع الماشية من إبل أو أغنام.. وتضيف الموسرات قلادة من الفضة، تنتهي بحجاب مربع أو على شكل سمكة، بالإضافة إلى مجموعة من الخواتم والأساور الفضية، كما لا يخلو جيدها من قلادة خرز ملون بأحجام صغيرة أو كبيرة، وفيما بعد ظهرت على صدور الزيوديات قلادة من الذهب، وهي مجموعة من الليرات العثمانية أو الإنجليزية تتوزع على خيط أسود، يضعنها في رقابهن، وأغلبهن يثقبن جانب الأنف ويضعن به قطعة فضة أو ذهب صغيرة تسمى «زميّم» بتشديد الياء وكسرها، ويقولون في الحداء وقت الحصاد:

يام زميم لاويتـه

مادري كيف مساويته

وأم زميم لاوي لي

معذبتك وأنت خطـي

البعض يضفن قطعة نقود فضية أو ذهبية للزميم، تتحرك حول الشفتين، يسمى في هذه الحالة «شناف».. تزين رسغيها بأساور من الفضة، وتضع أكثر من خاتم فضي في

أصابع يديها (فيما بعد أصبحت كلها من الذهب).. ترتدي المرأة المتزوجة خماراً أسود، يلتف على الرأس، ويغطي الصدر يسمى «ملفع»، تثبته على رأسها عصبة سوداء تسمى «معصب»، أو حطة حرير سوداء مطعمة بخيوط ذهبية.. أما الفتاة غير المتزوجة فتعقد منديلاً ملوناً من الصوف الملون أو حطة الحرير نفسها المسماة «حمصية» حول أعلى الرأس، وتعقدها من الخلف، ويسمونها «حمصية»، نسبة إلى مدينة حمص مكان صناعتها.. تبرز من خلف الملفع جديلتان من شعر المرأة والفتاة، تجدل في نهايتهما سفيفة من الصوف الملون منسوجة بعرض إصبعين أو أكثر، وهي مزينة بالودع الأبيض وقطع النقود الفضية، وتنتهي بشراشب صغيرة وتسمى هذه الجدائل «قراميل»، ومفردها قرمول، وكثيراً ما يصفها الشعراء في مجمل وصفهم لمحاسن المرأة كقول الشاعر:

يا عيني لك بالهوى لفتة

ما انتي على دين الاخوان

بلاي أنا واحد شفتــه

عوده من الزين ريــان

القرمول عالمتن ناسفته

أسود تقل ريش غربـان

وتغني الفتيات للعروس ليلة الحناء:

يمه يا يمه حشي لي قراميلي

طلعت من البيت ما ودعت أنا جيلي

تلبس بعض النساء المدرقة نفسها الشائعة في البلقاء ولكن بلا أكمام، حيث ينتهي امتداد المدرقة عند الكتف تماماً، ويطرز على دائر الساعد بألوان ورسوم البنائق والشليل

نفسها.. وترتدي تحته قميصاً ملوناً بأكمام طويلة حتى الزند.. وترتدي سترة من الصوف أو الجوخ تسمى «الدامر»، وهي بلون أزرق غامق وأصفر من الداخل، ويصفها الشاعر بقوله:

يا أم الدامر والعباه

يا عينك عين المهاه

في السفر والزيارات البعيدة ترتدي المرأة العباءة السوداء فوق ملابسها، بحيث تغطي رأسها وباقي جسمها، ولا تخرج العروس من بيت والدها إلى بيت عريسها إلّا مغطاة بالعباءة.. كان الوشم الأخضر الغامق شائعاً على وجوه نساء الزيود، ترسمه الغجريات اللواتي يترددن على المضارب بأشكال مختلفة: نقاط على كامل الذقن.. مستطيل صغير على الجبهة فوق العينين.. نقطتين أو ثلاث نقاط على كل وجنة تسمى «ردوع».. خط من الشفة السفلى إلى نهاية الذقن يسمى «سيّالة».. نقطة على رأس الأنف..

اللباس الذي وصفناه للمرأة هو على الأغلب لباس السفر والاحتفالات والمناسبات، أما لباسها العادي في بيتها وخاصة أثناء العمل فهو متواضع يتألف من مدرقة واحدة ومعصب، وهذه المدرقة تخلو من الزينة لكثرة الاستعمال؛ لأن المرأة تعمل مع الرجل في جمع غمور الزرع من الحقل، وحلب الأغنام وتصنيع ألبانها، كما أنها دائمة العمل في البيت لا ترتاح إلا وقت النوم.

الصحة والمرض

عانى أهالي غريسا والقنية من الأوبئة والأمراض المختلفة زمن ندرة الخدمات الصحية.. انتشرت الكوليرا خلال القرن التاسع عشر في جميع أنحاء العالم انطلاقاً من مستودعها الأصلي في دلتا نهر الغانج بالهند، واندلعت بعد ذلك ست جوائح من المرض، حصدت أرواح الملايين من البشر عبر القارات كلها.. في نهاية القرن التاسع عشر (1883) تفشّت في معظم أصقاع الوطن العربي بما فيه الأردن.. يذكر الراحل فياض الخلف المضعان أن «أبو هريهر» (اسم الكوليرا عندهم) قد حصد أرواحاً كثيرة، لدرجة أن الإنسان يخرج لقضاء حاجته في الخلاء ولا يعود.

كانت الحكومة العثمانية مشغولة بالحجر الصحي في المدن، وتركت الأرياف والبوادي تحت رحمة رب العالمين... في زمن الإمارة لم يزد عدد الأطباء عن عدد أصابع اليد الواحدة، وكان في كل لواء طبيب واحد (لواء إربد، مادبا، السلط، عمان والكرك)، وكان الأطباء يتنقلون أحياناً في المناطق على ظهور الدواب، و كانت وسائل العلاج التي تقدم للمواطنين في ذلك العهد بدائية، لم تكن تتجاوز في معظم الأحوال مرحلة

الإسعاف الأولي، أو تزويد المريض بالحبوب، كما يذكر الدكتور جميل التوتنجي.. لم تكن هناك استعدادات للقيام بعمليات جراحية أو مداواة الأمراض الخطيرة.

زاد عدد الأطباء في المدن الأردنية عندما تسلم الدكتور حليم أبو رحمة دائرة الصحة في الإمارة.. ونذكر ثبتاً بأسماء الأطباء في ذلك الزمن.. الدكتور طنوس قعوار ـ الكرك، أحمد الأفغاني ـ عمان، جميل حاطوم ـ مادبا، سمعان الخوري ـ إربد، محمد فريد المفتي ـ الطفيلة، أحمد المحايري ـ إربد، عمر الأسطواني ـ معان، إبراهيم حلمي الناعمة ـ العقبة، سعد نصر الله ـ جرش.

عدد المستشفيات في ذلك الوقت قليل، أشهرها المستشفى الإنجليزي في السلط ومستشفى في عمان... يذكر الراحل علاوي المنصور أنه حمل والده من غريسا على بعير إلى المستشفى الإنجليزي عام 1951.. أخبره الطبيب أن لا فائدة ترجى من علاجه.. أعاده على البعير نفسه من السلط إلى غريسا، وتوفي بعد يومين من عودته.

أول مستشفى حكومي أقيم في عمان سنة 1921/ 1922... بجانب مبنى قصر العدل القديم... تحت مبنى البنك المركزي... أشرفت على تجهيزه بلدية عمان... أجرة السرير كل يوم عشرة قروش مصرية (العملة المستخدمة آنذاك)، وأجرة العمليات يحددها مدير الصحة والطبيب... خصص المستشفى للفقراء سريرين مجاناً...في عام 1926 أقيم المستشفى الإيطالي بمكانه الحالي في عمان وسط البلد.. اشتهر باسم الطلياني.

من الأمراض الشائعة في القبيلة في ذلك الزمن.. الزكمة أو الرشحة.. وحينما بدأت دائرة الصحة بتطعيم الأطفال ضد مرض الجدري، ظهر البذّاح في غريسا والقنية يرافقه أحد جنود الدرك.. كان يجرح الطفل في ساعده، ويضع على الجرح مطعوم الجدري.. ولأن هذا الجرح كان مؤلماً للطفل.. فقد اعتادت النساء تخويف أولادهن قائلات: اسكت لأجيب لك البذّاح.

لم يكن مرض الملاريا قد غادر الأردن في الخمسينات من القرن الماضي.. ظهر موظفو

المكافحة يرشون أطراف سيل القنية بمبيدات البعوض الذي ينقل الملاريا.. كان الزيود يهربون من وخم القنية وقارصها (البعوض) إلى غريسا.. وقد كان هواؤها العليل شافياً لبعض الأمراض كما يذكر الراحل حسن الراشد الخليف.. كانت صرائر نسائهم تحتاط على المروحة والسنامكة.. ومن علاجهم الرائج للفكك في القدم أو اليد الكي، يذهب المفكوك إلى خبير يتفحص مكان الفك، ثم يكويه بجمرة صغيرة تتكون من أزهار النبات اليابس... وصفوا الرجل النشمي الطيب صاحب المروءة والنجدة بقولهم: فلان مثل الكي على الفكك.

ولأنهم يتعرضون للكسر صغاراً وكباراً فهم يلجأون للمجبر، الذي يعيد العظم إلى مكانه، ويشد على الكسر قطعتين من الخشب يثبتهما بلفيفة من القماش.. ونذكر من المجبرين: فياض الخلف المضعان ومعلا المقبل.. وهم يتفاءلون بالشفاء بوصف المكسور بقولهم: انجبرت إيده أو انجبرت رجله.. وكانوا يتعرضون للسع الأفاعي والعقارب من حين إلى آخر.. اعتادوا على شد العضو المقروص بقطعة قماش أو خيط، ثم يجرحون مكان اللسع ليخرج السم مع دم الملسوع.

في عام 1941 كان بركات السالم يحرث في مرتفع المطوّق شرقي القنية... كان يحرث حافياً وقد ترك حذاءه بطرف الحقل.. أنهى الحراثة ولبس حذاءه، فقرصته حية كانت نائمة في الحذاء.. حملوه على الفرس إلى المدور حتى يوصلوه من هناك بالسيارة إلى الطبيب في جرش أو المفرق... لم تكتب له النجاة وتوفي في الطريق قبل أن يصل المدور، كما روى لي والده.

في نهاية الخمسينات من القرن الماضي زاد عدد الأطباء في الزرقاء.. وكانت عيادتا الدكتور صالح برقان والدكتور ميشيل نجيب ليوس من أماكن استشفائهم.. ولصعوبة المواصلات فقد حملت أم طاهر الخلف طفلها المريض على بهيم من غريسا إلى الزرقاء.. عولج، وشفي، وتزوج، وأصبح له أولاد وأحفاد.. تردد حمد السليمان بولده أحمد على

أطباء الزرقاء ومستشفيات عمان.. كان يحمله على كتفيه من السيارة في غريسا إلى البيت في حوض البلد.. ويظهر أن مرضه كان مستحكماً، ولم تكن العلوم الطبية قد تقدمت كما في زمننا هذا.. توفي أحمد طفلاً في حوالي السادسة من عمره.

الدين والتعليم

غالباً ما يصلي أهالي غريسا منفردين، كل في بيته، وهم غير متفقهين في الدين بسبب وتيرة العمل المتسارعة.. رغم أنهم ينطقون لفظ الجلالة والشهادتين كلما صحوا من نومهم في الفجر.. ويلفظون الشهادتين كثيراً في اليوم الواحد للتعجب.. والارتياح من قضية شائكة.. وكظم الغضب في الجدال.. ونفاد الصبر.. وفي جدالهم يكررون جملة «وحد الله» أكثر من مرة.

في الثلاثينات من القرن الماضي حج إلى بيت الله الحرام كل من سلمان البركة المعلا، وأحمد سليمان الخالد، وفرج العلي على ظهور الإبل من غريسا حتى بيت الله الحرام.. وهم أول الحجاج من أهالي قرية غريسا زمن الإمارة.. وقد استغرقت رحلتهم أكثر من ثلاثة أشهر في الذهاب والإياب.. والمعروف أن أغلب الأردنيين حجوا على ظهور الجمال في تلك الفترة بسبب خراب الخط الحديدي الحجازي بعد الحرب العالمية الأولى.

كانوا يستفيدون من وجود مدرّس الكتّاب (الخطيب)، الذي يحضرونه من المدينة لتعليم أولادهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم.. وقد قرأ جيل الثلاثينات من

القرن الماضي على يد سلمان العميم، فيما قرأ عواد الصالح وعلي الحمدان في بلدة سوف قرب جرش، وسكنوا بها حتى انتهاء دراستهم.

بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948، وفد إلى غريسا اللاجئ توفيق يوسف (أبو وفيق) من (اللد) مع عائلته وقام بتدريس الأولاد في بيت من الخيش، وأتيح لكاتب هذه السطور أن يفتح عينيه على فك الخط في تلك المدرسة.. وهم يصفون المبتدئ بأنه فك الخط أي استطاع قراءة الكلمة.

في منتصف الخمسينات من القرن الماضي أنشئت مدرسة غريسا الابتدائية من غرفتين (مال زال البناء قائماً كجزء من بيت الراحل محمد الفنخور)، أحضرت الرحالي (المقاعد) واللوازم من مديرية المعارف (التربية والتعليم) في المفرق، وبدأ التعليم الرسمي لأول مرة في غريسا، ثم الهاشمية التي تطورت مدرستها إلى ثانوية.. لسنا نعلم السبب الحقيقي لعزوف الزيود عن دفع أبنائهم إلى الجامعات.. فقد تخرج أول جامعي منهم عام 1968 من الجامعة الأردنية وهو الأستاذ عبد الحميد حسن الناصر، جاء بعده الأستاذ عايد علي النصر الله.. ومن المفيد أن نذكر أول جامعي من قبيلة بني حسن عام 1958 وهو المحامي الراحل خالد نواش أبو دلبوح.. فالأردنيون الأوائل غادروا مدرسة السلط الثانوية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، والجامعة السورية في الثلاثينات من القرن الماضي.

بعد حوالي ثلاثين عاماً تخرج أول جامعي من قبيلة الزيود في غريسا والهاشمية.. وطوال هذه المدة لم ينتظم في الجندية إلا قسيم الشهاب، وعقلة الخليف العباس، وقد خدما في الأمن العام (درك فرسان)، وتقاعدا في الستينات من القرن الماضي.. وحميدان السليمان الفقير (والد الشاعر الراحل حبيب الزيودي).. وحميدان كان نجماً من نجوم جريدة الأردن الناطقة (فلم مصور عن نشاطات الدولة الأردنية يعرض للجمهور في دور السينما قبل بداية الفلم المعروض أو بين الفلمين).. فقد كان يحمل الراية الأردنية في مراسم الاحتفال بيوم الجيش وعيد الاستقلال.. لا شك أن عزوف الزيود وبني حسن

عن الجندية أمر يستحق التمحيص والدراسة.. لأن القبائل الأردنية الرحّل (أصحاب الوبر) انتظموا في السلك العسكري منذ بدايات تكوين الجيش العربي.

حفظت لنا سجلات الجيش العربي والأمن العام اسم محمد الصايل الحسبان (والد الوزير السابق الدكتور ياسين الحسبان)، الذي توفي في شبابه بحادث سيارة عسكرية.. وقد ذكره بإسهاب اللواء علي أبو نوار في كتابه «حين تلاشت العرب»، واللواء صادق الشرع في كتابه «حروبنا مع إسرائيل».. ونجد في سفر الشرف الأردني (سجل الشهداء الخالدين) الجندي الأول الشهيد يوسف خيرو شتوان الشديفات.. معركة كفر عصيون 13 أيار 1948.. وفي كتاب «أيام لا تنسى» لسليمان موسى نجد في قائمة محافظة إربد اسم الشهيد الجندي الأول محمد حسن عبد الوالي من بني حسن استشهد يوم 4/ 5 / 1948، والشهيد حسن ساهي محمد الخزاعلة استشهد في القدس 13/ 7 / 1947، والجندي جوهر خليف جوهر من قفقفا 21/ 5/ 1948... حتى عام 1961 لم يخدم في شرطة البادية إلا الملازم الراحل ماجد نواش أبو دلبوح وكاتب هذه السطور.

تروي حكاية رائجة في أوساط بني حسن أن (أبو حنيك) الفريق جون باجيت كلوب قائد الجيش العربي الأردني والأمن العام والدرك وشرطة البادية.. قد زار شيوخ بني حسن خلال جولته على القبائل الأردنية لتجنيد أبنائها في الجيش والشرطة.. قال له الشيخ مرزوق القلاب: اربط سطلاً (صفيحة تنك) بمؤخرة سيارتك، وجرّه وسط العرب، وجند من يلحق بك.. فقرر الباشا أبو حنيك منع التجنيد من قبيلة بني حسن.. ولكننا لم نجد سنداً موثقاً لهذه الحكاية في جميع الكتب التي دونت تاريخ الأردن وجيشه العربي. ولعلّ صحوة الزيود وبني حسن متأخرة أنتجت مئات إن لم يكن آلاف الجامعيين والأكاديميين من الجنسين، وضباطاً في الجيش والأمن العام وصلوا إلى رتب عالية.

الراديو

حينما ظهر الراديو في المجتمع الأردني كان مبعث دهشة... تعادل دهشتنا وفرحتنا بالإنترنت الذي قرب المسافات ونقل الرسائل والصور وأفلام الفيديو بواسطة التلفون النقال... الأردنيون البسطاء كانوا يسمون الراديو «صندوق الحكي»... لأنه صندوق خشبي بحجم السحارة تزينه مفاتيح توصل الطاقة وتحرك مؤشر الموجة... يعمل على بطارية وزنها أكثر من اثنين كيلوغرام... يرفع له سلك هوائي على مكان مرتفع حتى يلتقط إرسال الإذاعات... في القرى والمدن يرفعون الأنتين أو الهوائي على سطح البيت... البدو كانوا يلظمونه مع شقاق بيت الشعر جهة عمدان الواسط المرتفعة... قبل أن نتحدث عن وصول الراديو إلى غريسا ودهشة الأوائل بأن الراديو لا يتعب من الكلام ولا يسكت..سنعرض تاريخ الإذاعة.

بدأت الإذاعة اللاسلكية الفلسطينية أو إذاعة الشرق الأدنى كما سماها الانتداب البريطاني على فلسطين عام 1936 في يافا، لنقل صوت بريطانيا في فلسطين، وفيما بعد لمنافسة صوت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.. انتقلت إلى حي المصرارة داخل مدينة

القدس ومعها البرامج المنوعة والثقافية والموسيقى والأغاني المسجلة على أسطوانات... فيما أقيمت محطة الإرسال في رام الله.

حينما اشتد القتال في القدس، و دخلت العصابات الصهيونية أول حي المصرارة، فزع رفيق النمري وعصمت النشاشيبي مع آخرين إلى الرئيس محمود الموسى العبيدات من وحدات الكتيبة السادسة، التي تقاتل اليهود في المصرارة.. أعطاهم سيارة شاحنة مع حرس، ونقلوا موجودات الإستوديو كاملة إلى رام الله.. شبكوا الإستوديوهات مع محطة الإرسال وبدأت الإذاعة ترفع من معنويات الناس، وهي تذيع عمليات الجيش العربي والمناضلين الفلسطينيين على أرضهم، وبعد الوحدة بين الضفتين عام1950 أصبح اسمها إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من القدس.

افتتح المغفور له (بإذن الله) جلالة الملك الحسين بن طلال محطة الإذاعة في عمان عام 1956في جبل الحسين، كان إرسالها متواضعاً بالكاد يسمع في معان... في الأول من آذار عام 1959 افتتح الحسين المقر الدائم لإذاعة المملكة الأردنية الهاشمية في أم الحيران.. ظهر الراديو في غريسا بمطلع الخمسينات من القرن الماضي، جاء به مقبل السلمان من محلات ضبان في الزرقاء... اجتمع أهل غريسا على دكانة مقبل يستمعون للصوت العجيب مع الموسيقى والغناء.. سهر المجتمع العامل حتى انتهاء البث منتصف الليل، وتأخروا في النوم حتى وقت متأخر لم يعتادوا عليه.. ذات صباح شوهد الراديو على سرج فرس سلمان المعلاّ مغادراً به إلى الزرقاء وأعاده إلى ضبان.. ثم ظهر الراديو من جديد في بعض منازل غريسا وأم الصليح.

وحينما انطلقت ثورة الترانزستور، وتقلص حجم الراديو، وأصبحت البطاريات داخله.. وصل إلى بيوت الشعر في غريسا والقنية والمرباع في السائح والأدعم.. وفيما بعد دخل خرج رعاة الغنم ورافقهم في المراعي.. تأثر الزيود بالراديو ووصفوا الإنسان كثير الكلام في مجتمعهم بقولهم: فلان بالع راديو... وإذا احتكر أحدهم الحديث دون كل أهل المجلس يقولون له: خلص يا زلمة سكر هالراديو.

مقامات وأولياء وغيبيات

اعتقد أهالي غريسا بالقوى الغيبية والأولياء والمقامات مثل غيرهم في العالم العربي والعالم منذ زمن الإغريق حتى يومنا هذا، اعتقد الإغريق بهرقل الذي لا يقهر، وابتدعوا أبولو إله الفنون، بما فيها الموسيقى والشعر، وهو أيضاً إله الشمس.... آثينا إلهة الحكمة، والحرب، والتخطيط، زيوس إله السماء والصاعقة، آرتميس إلهة الصيد، الرماية، الولادة، العذرية، وحامية صغار الحيوانات والبشر، وفي بعض الأساطير كانت آلهة للقمر.

والآن نجد السينما العالمية تقدم شخصيات خارقة أقوى بكثير من قدرة الإنسان، مثل الرجل الخفي والرجل العنكبوت والرجل الآلي وغيرهم ؛ لمكافحة الأشرار الذين لا تقدر قوى الأمن والجيش على ضبطهم.

اعتقد الزيود باللجام، وقد عرضت موضوعه (مع تميمة الخرزة الزرقاء) في الحكايا الأردنية كما يلي: (اللجام: هو قطعة حديد، جزء من رسن الفرس إللي يشده الفارس حتى يسيطر على الفرس في ركضها أو انطلاقتها السريعة... لكن اللجام برضه هو تميمة أو حجاب ينعمل لإبعاد الذئب أو الضبع أو الضواري عن الحلال حسب اعتقاد

جدودنا... جدنا كان يجيب عود طري للحاجب أو اللاجم، وهذا يبدا يصلحه بالسكين أو الشبرية وهو يقرا عليه... أو يسحب الشبرية من غمدها ويعيده وهو يقرا التميمة... الكلام إللي يقراه وثّقه إلنا العلامة الراحل روكس بن زائد العزيزي، صاحب قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية... يقول اللاجم: أولها بسم الله، أو ثانيها بسم الله، أو ثالثها ثلاث أمانات بالله... وش هالصوت العظيم؟ لا أرامل انقهرت، ولا يتامى انتهرت، ولا حدود تقلطت، ولا حجار تقلبت، إلجم يا رب على حلال فلان بن فلانة من الوحش والوحشية، والضبع والضبعية، وكل دبابات الأرض، إلجم يا رب إلجم يا رب... وبعضهم يزيد.. الواردة على الما ظامية ما شربت.. كل دبابات الأرض ووحوشها ما تقد لذاهبة فلان بن فلانة جلد، أو لا ييتمن لها ولد، ولا يدقن لها عظم، ولا يسيلن منها قلم دم، حتى تلد البغلة العكيم، ويبيض الأسود الحتيم، وحتى يصير العظم الرميم إنسان حكيم، وينبت في راحة اليد شعر أسود فحيم، وألف لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، والحي القيّوم... طبعاً إحنا اختصرناها حتى نترك مكان لتعليق للعزيزي يقول فيه: إنه إللي رووا ابدة اللجم هذي شافوا الذيب يهجم على أغنام الناس إللي لجموا الذيب عنها، وبخيالهم أنه ما يقدر يفتح إثمه لافتراسها.

سالفة تميمة اللجام من خيال جدودنا... وغالباً ما يستعملها الضعيف أو الكسلان لحماية حلاله... وبعضهم حينما يفقد فرس أو دابة أو حلال، ويصيبه اليأس من العثور عليها كان أول ما يركض على اللجام يلجم إله عنها... ويقرا التمايم إللي في ذهنه أنها تحفظ الضايعة من الوحوش أو الحرامية... وغالباً كاتب التميمة أو الحجاب يطمن صاحبها الملهوف ويقول: إذا فيها نصيب ما تروح... ويزيد عليها إذا أنها رزقة حلال ومزكىّ عنها لابد أن الله سبحانه وتعالى يعقلها عليك... العقلى في ذهنهم هي التعويض برجعة الضايعة أو رجعت الغايب.

وطبعاً كل هالحكي عبارة عن آمال وأحلام جدنا إللي كل همه أنه يلقى حلاله الضايع

سواء كان غنم أو بقر أو فرس أو حتى بهيم... طبعاً هو يساوي التميمة أو الحجاب للمساعدة بس... لكن عملياً هو يشمر هدومه ويركض يدور ذاهبته.

وجدنا في سجلات محكمة عمان الشرعية زمن الحكم العثماني أن كركياً لقي فرسه الضائعة أو المسروقة من الكرك في سوق الحلال في عمان... وأحضر شهوداً للمحكمة أثبتوا أنها ماله وحلاله... وكان جهده مع جهد المحكمة أهم من أي تميمة أو حجاب «انكتب وانطوى»... وإحنا نقول مع الشاعر.

إذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

لما انصابت عيون الحفيد بالرمد قالت جدته لأمه: شوفي له خرزة زرقا وعلقيها بين عيونه.. وين الخرزة الزرقاء؟؟ ضاعت بالرحيل.. روحي على خالتك عندها وحدة كانت معلقتها بغرة فرس جوزها... الخرزة الزرقاء تميمة أو تعويذة عن العين الحاسدة والشرور الخفية إللي كان الإنسان القديم يفكر أنها راح تصيبه... هذي قديمة عند العرب قدم التاريخ.. قال شاعرهم:

إِذَا مَاتَ لَمْ تُفْلِحْ مُزَيْنَةُ بَعْدَهُ

فَنُوطِي عَلَيْهِ يَا مُزَيْنُ التَّمائِمَا

هذا فارس من فرسان قبيلة مزينة العربية... الزلمة كان «مقاتل شجاع» وصاحب عقل وإدارة... وإللي مثله محسود ولذلك نصحوا قبيلته مزينة أنها تنوط عليه من التمائم مثل الخرزة الزرقاء... قلنا تنوط والمقصود تعلق، ولهذا سموا بعض النياشين والأوسمة «أنواط»... وقالوا نوط الشجاعة ونوط البسالة.

قليلاً ما يخلو البيت الأردني القديم من الخرزة الزرقاء... يشتروها الستات من البياعين الدواجين ويعلقوها بالخياطة على راس الطفل الوليد أو قماطه... ولما يكبر ويستمر الخوف عليه يعلقن الخزة الزرقاء بقلادة برقبته... أو يخطنها على صدر ثوبه... بحيث إنها تبقى بارزة تواجه الحسد والعيون الشريرة وتردّها.

لما جدنا يشتري مهرة أصيلة... قبل ما يتلايموا القرايب يباركوا له وطبعاً بينهم حساد... بكون جدنا علق الخرزة الزرقاء بغرة الفرس أو بقلادة الصوف برقبتها... الصناع الأوائل أنتجوا كف أنثى بوسطه الخرزة الزرقاء ما غيرها... سموها «كف مريم» أو «كف فاطمة»... لما جدنا يبني دار جديدة كان يشتري الكف هذا ويعلقه على الباب الخارجي والسبب زي ما قلنا.

الخرزة الزرقاء قديمة في الشرق قدم التاريخ.. وتختلف الروايات في رمزها... يقول بعض الدارسين إن الشعوب السامية التي سكنت أطراف البحر المتوسط هي التي رسمت الكف التي تحمل العين الزرقاء، والقصد ترهيب الرومان إللي استعمروا بلدانهم مرات كثيرة... ولأن عيون الرومان زرقاء ومختلفة عن عيون الشرقيين... صارت الخرزة الزرقاء تعبيراً صريحاً عن رفضهم للمستعمر الجديد، تقول المرويات إن شعوب الشرق الأوسط كانوا يشيلوا عصي بطرفها خرزة زرقاء... وكل اعتقادهم أنها الرمز المخيف إللي يقلع عيون الرومان... وكانوا يرفعونها على أبواب بيوتهم للحماية من كل شر، أو يشيلوها قلايد برقابهم... في دراسة ثانية تقول إن أصل الخرزة الزرقاء يرجع إلى زمن الفراعنة إللي كانوا يخافون من أصحاب البشرة البيضاء والعيون الزرقاء، ويرفضون وجودهم على الأراضي المصرية.

الباحث سيريل ألدريد إللي تخصص بدراسة مجوهرات الفراعنة... يقول إنها تطورت عن شكل بدائي يتمثل في التعويذة إللي كانت تتدلى من خيط أو رباط حول الرقبة... استخدمها الإنسان البدائي حتى يحفظ نفسه من القوى الخفية الموجودة في الطبيعة...

وكان يعتقد أنها ترسل عليه الأعاصير والفيضانات والبراكين والزلازل، وتصيبه بالأمراض.

أكثر التمائم شيوعاً واستخداماً بين المصريين القدماء كانت التميمة أو الرقية المصنوعة من الخرز، لشعورهم بالجانب الجمالي في أشكال وألوان المواد الطبيعية، و اعتقادهم في القوى السحرية للخرزات.. اختار الفراعنة اللون الأزرق لارتباطه بزرقة السماء التي تسبح فيها الشمس (رمز الإله رع عند المصريين القدماء)، وتعيش فيها الآلهة وتحمي الإنسان وتباركه.

وإحنا نسولف عن الخرزة الزرقا وتأثيرها بجدودنا وجداتنا... نذكر اعتقاد القدماء أن الخمس أصابع بكف اليد فيهن ذبذبات طاقة الدفاع إللي تمنع الأذى عن جسم الإنسان، أو ما يخصه إذا ما دفعت في وجه الحسود... وما يغيب عن البال أن جدتنا كانت تفرد أصابعها الخمسة بوجه إللي تفكر أنه يضمر لها الحسد... وتنطق العدد خمسة ومضاعفاته مثل قولها مكوم بخمسة رسول الله.

الأتراك اهتموا بالخرزة الزرقاء مثل شعوب الشرق القديمة كلهم... لما تطورت حالهم عملوا منها صناعة شعبية تنباع للسواح... تفننوا بصناعتها، أشكال وألوان وأدخلوا الخرزة في أغلب بضائعهم التراثية إللي يعرضوها بأسواقهم... بعدين فاتت الخرزة الزرقاء وثائق اليونسكو... سنة 2014، أدرجها الأتراك مع مجموعة من القيم الثقافية والتراثية في قائمة اليونسكو، ومن أول القيم الثقافية والتراثية الخرزة الزرقاء... عندنا في الأردن نلاقيها ببعض محلات التراث... كان جدودنا يخافون من ثلاثة أنواع من عين الحسد فالأولى هي عين غير مقصودة تؤذي الآخرين والأشياء عن غير عمد، والثانية تطرق الواحد عن عمد... لكن الثالثة مخفية وغير مرئية ويعدّونها الأخطر، لأجل هذا جابوا الخرزة الزرقاء إللي تشوف كل أنواع الشرور وتعكس الشر على حامله بواسطة اللون الأزرق.

يخافون من خسوف القمر كثيراً ويعتقدون أنه فأل شؤم أو كارثة.. البعض كان يقرع الصفائح والخشب وهو ينظر إلى السماء وينادي: يا حوتة اطلقي قمرنا.. إذا تأخر المطر في موسم الشتاء تجتمع فتيات غريسا في طقس الغيّاثات.. يتواعدن في مسيرة داخل القرية بين الأزقة والمنازل.. تتلفع كل واحدة بعباءة تفاؤلاً بنزول المطر تلك الليلة.. وكثيراً ما ينزل الغيث في تلك الليلة.. يغنين أغنية على شكل حداء وهي شائعة في عموم مناطق الأردن وفلسطين.. تقول كلماتها:

يالله غيثك ياربي

تروي زريعنا الغربي

يالله غيثك يا دايم

تروي زريعنا النايم

راحت أم الغيث تجيب رعود

لفت والزرع طول البارود

يتلقين بعض الحلوى ورشات الملح والطحين من ربات البيوت اللواتي يشاركنهن الدعاء.. وتتحمس إحداهن بزغرودة عالية يتردد صداها في باقي بيوت القرية، ويتفرّق جمعهن مع أول رذاذ من المطر يداعب وجوههن، ويسهرن الليل يستمعن إلى خبط الرعود هنا وهناك.

لا شك أن بلاد العرب كافة كانت تمر بفصول قحط كثيرة.. فقد حفظ لنا التاريخ المروي والمكتوب لهفة العربي للمطر في بلاد تهطل الأمطار فيها طوال فصل الشتاء وبعض باقي فصول السنة مثل الأندلس... حتى أن لسان الدين ابن الخطيب يبدأ موشحته الشهيرة يرجو الغيث لدياره في الأندلس:

جادك الغيث إذا الغيث همى

يا زمان الوصل في الأندلس

لم يكن وصلك إلا حلما

في الكرى أو خلسة المختلس

ويصف شاعر الأردن مصطفى وهبي التل (عرار) احتفال وادي الشتاء وخمائله بنزول المطر قائلاً:

يا بنت وادي الشتا هشت خمائله

لعارض هل من وسمي مبدار

وثغرة الزعتري افتر مبسمها

عن لون خدك إذ تغزوه أنظاري

وسهل إربد قد جاشت غواربه

بكل أخاذ من كل عشب ونوار

إن الشماليخ في حصن الصريح لقد

حالت إلى عسل يا بنت فاشتاري

دعي المدينة لا يخدعك باطلها

فزيفها بين غير منظار

ما بعد خبيز وادينا و خبزته

وبض عكوبنا مير لمتار

وليس ثمة فرق بشرعتنا

ما بين راعي سحاحير وسحار

خداك يا بنت من دحنون ديرتنا

سبحانه بارئ الأردن من باري

ونجد عشرات الشعراء البدو لا يملّون ترداد وصف الأمطار في ديارهم والدعاء لأحبتهم البعيدين بأن يرزقهم الله المطر:

يا مزنة غرا أمـــن الوسم مبدار

بـــرقة جذبني كل حينا رفيفه

ترعى بها شقحا من الذود معطار

عقب الهزل تغدي ردوما امنيفة

فمن وصف الإبل السمينة في مراعي الربيع بعد هطول المطر، بحيث ترتفع سنامها منيفة من الشحم، إلى وصف الفطر الزبيدي والكمأة في مكان آخر ليغدو مثل رؤوس الأمهار، وتصبح الأعشاب مثل جدائل الرجال الذين كانوا يختالون بطول شعر رؤوسهم:

المزنة الغرا بروقه رفاريف

تمطر على الظفرة مطرها انهشامي

زبيديها روس المـهار المشاعيف

وعشبها قـــرون مسيحين الآدامي

منذ عشرات السنين إن لم تكن المئات تتردد على ألسنتهم تلك المفردة التي ننعى بها أو نتذكّر لحظة مفرحة أو أياماً جميلة بقولنا (سقاالله هذاك اليوم).. وهي حاضرة لا تغيب في زماننا هذا.

التشاؤم والتطيّر

تطيّر الزيود الأوائل من مشاهدة الأرنب في الطريق، خاصة إذا كانوا على سفر لأمر يهمهم.. والبعض كان يعود إلى بيته من دون إكمال مشواره؛ لاعتقاده بفشل الأمر الذي يذهب لأجله.. تفاءلوا بالثعلب (الحصيني) كثيراً.. فإذا صادفوه على طريقهم يجزمون أنه فأل خير وأن أمورهم تيسرت.. تطيّروا وتشاءموا من بعض الأشخاص في حياتهم اليوميّة.. خاصة أولئك الذين اشتهروا بما يسمى «فراغ العين».

حينما يشتري أحدهم فرساً أو جملاً.. ويرى أحد الحساد يحد النظر ويراقب الفرس قرب أطناب البيت.. أو يراقب بناء داره الجديدة... يردّد بصوت خفيض: الله يكعمك... أو عساك مكعوم بالله... يقولونها «يتشعمك ومتشعوم»... يكعم يعني يزيل أو يوقف التأثير من باب إبعاد الشر، مكعوم يعني موقوف أو مجمد أو مبعد حسب الحالة المتوقعة للتأثير كما يفهمها الزيود.

في القاموس... كَعَمَ البعيرَ، كمَنَعَ، يَكْعَمُهُ كَعْماً، فهو مَكْعومٌ وكَعِيمٌ: شَدَّ فَاهُ في هِياجِه لئلَّا يَعَضَّ أَو يأْكُلَ.... وفي الحدِيْث: «دَخَلَ إخوةُ يوسفَ، عليهِ السّلامُ، وقد كَعَمُوا

أَفْواهَ إِبِلِهِم... وفي حَدِيْثِ الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه... فهم بينَ خائِفٍ مَقْمُوعٍ وساكِتٍ مَكْعومٍ... قالَ ابنُ بَرِّي: وقد يُجْعَلُ الكِعَامُ على فَمِ الكَلْبِ لئلَّا يَنْبَح... وأَنْشَدَ ابنُ الأَعْرَابيِّ:

مَرَرْنا عليه وهْوَ يَكْعَـــمُ كَلْبَـــه

دَعِ الكَلبَ يَنْبَحْ إنّما الكلـبُ نابحُ

وقالَ شاعر:

وتِكْعَمُ كلبَ الحيِّ مِن خَشْيةِ القِرى

ونارُكَ كالعَذْراءِ مِن دونِهـا سِتْرُ

الكِعْمُ: وِعاءٌ للسِّلاحِ وغيرِهِ، وكُعُومُ الطَّريقِ: أَفْواهُه، قالَ شاعر:

أَلا نـــامَ الخَـــلِيُّ وبِـــتُّ حِلْسًا

بظَهـــرِ الغَيْبِ ســُدَّ به الكُعُومُ

كَعَمَ الوعاءَ كَعْمًا: شَدَّ رأْسَه.. كَعَمه الخَوْفُ فلا يَرْجعُ أَي أَمْسَكَ فَاهُ وسَدَّه عن الكَلامِ... كَعَمَه الخوْفُ فلا يَنْبسُ بكَلِمَةٍ، قالَ ذو الرُّمَّةِ:

بَيْنَ الرَّحى والرَّحى مِن جَنْبِ واصِيةٍ

يَهْماءُ خابِطُها بالخَــوْفِ مَكْعُــومُ

وكَعَم الأَمْر: أَخَذَ بمخْنَقِه.

أبهرتهم أعمدة آثار جرش التي سقط بعضها بفعل الزلازل.. ولأنهم مسكونون بعادة الرشوة منذ الزمن العثماني.. فقد نسبوا خراب المدينة إلى الرشوة وقالوا: البراطيل خربت جرش.

الفقرا

تميّز أحد الفروع من قبيلة الزيود بأنه عائلة شبه مقدّسة تدعى الفقراء، وكما هي في لهجة البلقاء عامة وبني حسن خاصة يطلق على الفرد منها لقب «الفجير»، فأجدادنا يلفظون القاف جيماً... عاصرت منهم سليمان الفجير، الذي حلّ بضيافة أحد رجال عشيرتي الصغرى المعلاّ وقد توافد القوم للتبرك بقدومه... أحدهم جاء بزجاجة دواء صغيرة ملأها بزيت الزيتون وطلب إلى الفقير أن يباركها... تلا عليها اسم الله، وتمتم بكلام لم نفهمه نحن الصغار، وأعادها إلى الرجل الذي أمضى زمناً يدهن بعض أجزاء جسمه من زيت الفقير...

ومثل تلك العائلات التي تتمتع بقدسية واحترام كثيرة في الأردن والوطن العربي، كما هو حال الأسرة الرفاعية والأسرة الزعبية والأسرة الكيلانية... ومثلها مريديو وأتباع الطريقة البكتاشية والجيلانية... أما في المغرب العربي فقد لعبت أسر المرابطين بفروعها المتعددة دوراً كبيراً في إنهاء الحروب الداخلية، ومقاومة الاستعمار الفرنسي والإيطالي، والمحافظة على عروبة المغرب لغة وديناً... وحتى التسعينات من القرن الماضي كنت

أسمعهم يخاطبون المرابط في ليبيا بقولهم: يا سيدي عبد القادر...

اعتقد الزيود بكرامات الأسرة الزعبية.. وكثيراً ما كنا نسمع جداتنا يستحضرن تأثير الزعبي عندما يكبو أحد أولادهن فيقلن: الله وارشيد الزعبي معك، وكانوا متأثرين بسيرة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. حينما يودعون مغادراً يقولون: الله وعلي معك..

الحجاب

لعب الحجاب المكون من ورقة مطوية بحجم إصبعين أو ثلاث، والمحفوظ بخرقة مخاطة من كل الجوانب على شكل مثلث.. لعب دوراً كبيراً في حياة الزيود القدماء.. فحينما تشك سيدة أن زوجها ينوي الزواج عليها.. تلجأ إلى بعض ممتهني الشعوذة لكتابة حجاب يصرف رأي زوجها عن الزواج.. وبلغ الأمر بكثير من الناس أنهم يلجأون إلى الحجاب للشفاء من الأمراض التي تلم بأفراد العائلة كثيراً.. وقد استغل المشعوذون هذه الحاجة الغيبية للاسترزاق.. وكثيراً ما لجأت بعض النساء أو الرجال إلى ذلك المشعوذ؛ لينقذهم من حالة العقم التي تهدد زواجهم بالفشل.

لم يقتصر هذا الاعتقاد على الزيود وحدهم.. بل هو متأصل في حياة العرب منذ عصر الجاهلية والإسلام.. ففي العصر الجاهلي اتهم الفاكه بن المغيرة المخزومي زوجته هند بنت عتبة بعلاقة مع رجل دخل ديوانه وهي نائمة.. حاكمه والدها إلى أحد كهان اليمن الذي برأها من التهمة.

كان الدكتور جميل التوتنجي طبيباً للصحة في مادبا في بداية عهد الإمارة... راجعه

شيخ قبيلة يشكو من مرض معين... كان الرجل كبيراً في زعامته، دخل العيادة مع اثنين من عبيده المسلحين... حينما بدأ الطبيب الكشف بقياس الحرارة والنبض أوقفه الشيخ وقال له: أنا جيتك مشان تكتب لي حجاب يشيل عني المرض... اندهش الطبيب الذي تعلم في كلية الطب ومارس مهنته بالكشف عن الأمراض، ووصف علاجها بالإبر والحبوب من الصيدليات... حاول إقناع الشيخ بالكشف الطبي التقليدي، ولكن الشيخ أصر على الحجاب.. قرر الطبيب مسايرته واشترط عليه قائلاً: الدواء والحجاب سوا... أعمل لك الحجاب على شرط توخذ الدوا بمواعيده، وتراجعني بعد أسبوعين.

يقول الدكتور جميل التوتنجي في مذكراته: إنه خربش على ورقة ولفها على شكل حجاب وأعطاها للشيخ المريض... وفي الوقت نفسه كتب له الدواء وأخذ عليه شرطاً بتناوله في مواعيده حتى آخر حبة منه... بعد شهر راجعه المريض وهو بكامل عافيته... تفاجأ الدكتور أن الشيخ يطلب حجاباً مماثلاً لأحد أقاربه المرضى.

مقامات وأنصاب

قدّس أهالي غريسا بعض الأنصاب والمقامات.. وهذا الاعتقاد الغيبي شائع كثيراً في الوطن العربي منذ زمن الدولة العثمانية.. وسنضرب أمثلة على الكثير منها.

معروف عن الأردنيين مثل العرب كلهم أنهم يخترعون الأولياء ومقاماتهم من الشخصيات الطيبة التي تؤثر فيهم.. بعد موت الرجل يصنعون من قبره مقاماً يكبر ويصغر حسب رغبة الناس والأساطير التي تمجد ذلك الولي.. فهو يشفي المرضى ويساعد العواقر على الإنجاب... وبلغوا من تقديسه أنهم يقسمون الأيمان عند الضريح هروباً من جريمة قتل أو سرقة.

وقد تحدث المعمرون من أبناء السلط عن حكاية الحراث الذي ترك العود والسكة في أرضه طالما يحرسها النبي شعيب... في الصباح عاد للحراثة ولكن العود اختفى... عاتب الرجل سيدنا شعيب وكفر بقدراته الأسطورية... في اليوم التالي وجد عود الحراث مكانه فاعتذر من شعيب الذي أعاده له... يضيف السلطيون أن السارق أصيب بعارض صحي ظنه عقاباً من صاحب المقام، فأعاد العود إلى أرض الحراث.

يعود تاريخ مقام النبي هارون في البتراء إلى احتفالات العرب الأنباط بالإله «ذو الشرى»، وتقديم القرابين له في أكثر من مكان في البتراء سمي «المذبح»... بعد احتلال روما لعاصمة الأنباط ودولتهم تحول الاحتفال من الإله «ذو الشرى» إلى الإله «زيوس» الروماني... استمرت هذه الاحتفالات في العصر الإسلامي كطقس شعبي موروث يمارسه سكان البتراء ووادي موسى.

عام 1812 زار السويسري يوهان لودفيك بيركهارت مقام النبي هارون، بعد أن أقنع مرافقه أنه يريد نحر أضحية لصاحب المقام.. ولكن النمساوي الويس موزيل يقدم وصفاً للمقام معتمداً على الحكايات الشعبية... تروي القصة أن هارون عليه السلام توفي على قمة جبل يبعد مسافة مسير ثلاثة أيام إلى الشمال الغربي من جبل هارون الحالي..

جاء طائر ضخم وحمل الجثة على ظهره، وحلق به باتجاه الشرق، بعد فترة بدأ الطائر يشعر بالتعب، وحط على قمة جبل؛ ليأخذ قسطاً من الراحة، ولكن الجبل انزلق من تحت أقدام الطائر مما أجبره على استكمال مسيره ولم يستطع الوقوف إلا في منطقة تسمى «عين الويبة» (الأصل الغويبّة من غبّ الإبل وورودها الماء)، ليستريح هناك قليلاً ويروي عطشه.. ثم طار ثانية حتى استراح على قمة جبل هارون، حيث بقيت قمة الجبل صامدة ولم تنزلق من تحت أقدامه، وبهذا استطاع الطائر أن يضع جثمانه هناك، ولكن جثمانه لم يلمس الأرض أبداً.. حيث انفلق الصخر وأحاط بالجثمان، ثم أطبق الصخر مرة أخرى على جثمان ذلك النبي.

في تلك الأثناء انطلق نور ساطع من تلك القمة إشارة إلى أهل المنطقة بأن هناك شخصاً مقدساً قد توارى جثمانه في ذلك المكان.. وعليه قام السكان المحليون ببناء ضريح لهذا النبي في ذلك المكان.. وبعد ذلك، ومن أجل أن يحتفظوا بذلك الجثمان المقدس قاموا بحفر الصخر حتى وصلوا إلى الجثة، وبنوا حولها تابوتاً من الرخام، كما تذكر مارغريت موري في كتاب «البتراء مدينة أدوم الصخرية»... حتى الستينات من القرن الماضي تتردد

أسطورة بين العزازمة والسعيديين والبدول تقول: إن النبي هارون كان مدفوناً بجانب عين الغويّبة... بالجانب الغربي من وادي عربة الذي يواجه منطقة الضحل... كانت عين الغويّبة مورداً للإبل.. انزعج هارون من رائحة الإبل، وطار من جانب العين إلى مكانه العالي على قمة جبال البتراء.... كان عربان البدول وبعض من عربان وادي موسى يقيمون احتفالاً خاصاً عند هذا المقام.. يذبحون فيه الذبائح، ويمضون ليلة صيف حول المقام، يتبركون به ويناشدون القوى الغيبية أن تحل لهم مشاكلهم، وتعافيهم من الأمراض، وتبعد عنهم المصائب والشرور..

وهكذا استغل المستشرق بيركهارت تلك الطقوس لزيارة مقام النبي هارون، فقد اشترى عنزاً وأخبر دليله أنها نذر للنبي هارون... الدليل صدّقه خوفاً من النبي هارون إذا منع السائح من زيارته بالنذر... وهكذا تمكن المستشرق من زيارة الضريح ...

سخر بعض العرب من الأساطير الغيبية، فنسجوا حولها حكايا تليق بها... زار أحد المتبحرين بالدين قرية، وأقام الصلاة فيها إماماً للمصلين الذين أعجبهم بالحديث والتلاوة... تشبثوا به طالبين منه تأسيس مقام في قريتهم لأي ولي من الأولياء؛ أسوة ببعض القرى التي تضم أضرحة ومزارات لأولياء مزعومين... اعتذر الشيخ وحاول أن يقنع القرويين بالبدعة التي يطلبونها، فاستعان بالأحاديث النبوية الشريفة ونصوص القرآن الكريم لإقناعهم... ولكن القوم ازدادوا إصراراً جعله يفكر بحيلة ليسخر منهم... طلب إليهم أن يجهزوا قبراً ويبتعدوا عنه منتصف الليل... كان قد عثر على جثة كلب ميت واستغل غيابهم عن القبر ودفن الرمّة فيه، وبنى بعض الحجارة حوله... في الصباح سأله القرويون عن اسم صاحب المقام الذي فرحوا به... قال لهم: هذا مقام الولي عو عو.

الأسطورة الثانية من صنع الإنسان أيضاً... اشتغل اثنان من الفعلة بنقل حاجيات الناس على حمار يملكانه... أسمياه «أبو الصبر»، لأنه ينقل الأثقال من الفجر حتى

الغروب... مات الحمار بسبب التعب الدائم، وانقطع السبيل بأصحابه، وهو ثروتهم الوحيدة... استغلوا سذاجة الناس وتفتق عقلهم عن حيلة... حفروا قبراً للحمار ودفنوه، وسوّروا القبر بالحجارة على شكل كوخ صغير، وأشاعوا بين القرى أنه قبر الولي «أبو الصبر» الذي يشفي من الأمراض ويصلح بين الأزواج المتخاصمين... إلخ.

بدآ يخدمان المقام ويستوليان على الهدايا والتقدمات التي ترد من البسطاء.. كثر المال بين أيديهم فاختلفا على نصيب كل واحد منهم لدرجة النزاع... قال الضعيف للقوي: والله إذا لم تعطني حقي سأشكوك إلى «أبو الصبر»... ضحك القوي وقال: ولكننا دفناه سوية، وكلانا يعرف من هو «أبو الصبر».

احتاروا واندهشوا من الخصاص الحجرية الضخمة بين غريسا والقنية... أسموها «بيت الغولة» لضخامة حجارتها.. اعتقدوا أن العمالقة فقط هم القادرون على بنائها كمكامن للصيد... فيما بعد درسها علماء الآثار وأسموها «الدولمن»... وهي عبارة عن كوخ حجري، يتألف من ثلاث كتل حجرية منصوبة بشكل عمودي، تغطيها من الأعلى كتلة حجرية ضخمة، وأحياناً توجد في هذا الشكل الأثري الصخري فتحة ضيقة عند أحد طرفيه للولوج من خلاله... استعمل الدولمن غرفة للدفن، ويعد الأردن من أكثر المناطق التي يوجد فيها «الدولمن»، وأهمها يتركز في مناطق داميا، وديرعلا، والروضة، والديمة، والشونة الجنوبية، ووادي الأردن... وغريسا، والحصب، والقنية...

من الأنصاب والمقامات التي اعتقد بها أهالي غريسا:

1. علي الزّيرة: وهو مكان مقبرة غريسة الحالية (مقبرة الشهداء)، وتعود إلى علي بن سليمان بن علي بن صالح بن فياد بن رسلان الحديد.. أبناء (حميد) أطلق عليهم لقب (الزّيرة)؛ لأن الله عز وجل وضع في أيدي بعضهم كرامات (حسب الاعتقاد)، وكانت العربان وخصوصاً عشائر البلقاء تزور بيوتهم وقبورهم (مقامات أو مزارات) للتبرك

بها، ومن هنا أطلق عليهم الزّيرة؛ لكثرة زوارهم الساعين للبركة والاستشفاء.. كان علي الزّيرة متزوجاً من سيدة من العليمات بني حسن، وأخوالها من الزيود لذلك لجأ إلى غريسة بعد خلاف قبلي مع أقاربه.. فقد فرض الأتراك على الحديد شيخاً غير مرغوب من جلّهم.. لجأ بعض أبناء العشيرة إلى بعض عشائر البلقاء (مكافات شر)، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر صايل الحديد، جد الشيخ برجس الذي لجأ إلى بني حسن وتحديداً إلى المفرق ومات ودفن هناك، وقام بعد ذلك الشيخ منور شتيوي الحديد بإرجاع ابن صايل الوحيد وهو الشيخ شاهر الحديد إلى القويسمة، وكان فتى في مقتبل العمر (كما يروي الحفيد زيد جفال الحديد في رسالة للمؤلف).

سكن علي الزيرة غريسا، وتأثر أهلها بطيبته وكرمه، توفي قرب المقبرة الحالية ودفن هناك، وأصبح قبره مزاراً يتبرك الناس بهـ وسمي على اسمه (علي الزيرة)... لا بد أن الزيود يعرفون عن تاريخ الزيرة حتى يبنوا مقاماً من الحجارة البازلتية السوداء على قبره، ويتبركون به.

فيما بعد عاد أولاده مهنا وجفال إلى القويسمة.. تصوف مهنا، وسكن وحيداً في مغائر شمال الموقر وتوفي هناك، وسمي المكان «مغاير مهنا»، عاش جفال وأنجب ومات ودفن في خربة جفال في القويسمة، وكان البسطاء من بعض عشائر البلقاء يزورون قبره، ويذبحون الذبائح طلباً للشفاء كما يروي حفيده زيد.

2. أبو الظهور: حجر بركاني مستدير في الروض الواقع شرقي القارمة بتلعة هزاع أبو عليم، كان الناس يدخلون أجسامهم في الصخرة المستديرة، ويخرجون طلباً للشفاء من أوجاع الظهر.. ولعل هذا سبب تسميته «أبو الظهور»... والمكان يقع في أرض العليمات، ولعل الاسم مشتق من اعتقادهم بشفاء أوجاع ظهورهم عندما يزورونه.

3. شجرة الهفيف: شجرة بطم عملاقة يابسة على الجبل الشمالي بين غريسا وأرض

العليات، كانت النساء يزرنها، ويربطن بها قطعاً من الخيوط والأقمشة طلباً للحظ والشفاء من الأمراض.

4. حدد: في السفح الشمالي المطل على خريسان والقنية وطواحين العدوان شجرة خروب كبيرة، تحتها بعض الحجارة النبطية المنحوتة.. أسماها الزيود و«بني حسن» «مقام حدد».. في فصل الربيع عندما يبدأون بجني الزبدة من حليب أغنامهم.. كان الصغار يحاولون الأكل منها.. بينما الأم تعدّ نقصها في البدايات فأل شؤم.. ولهذا تحذر الصغير بقولها: ابعد عن الزبدة لا (أحسن) ما يجمّدك حدد.. كانت الشجرة مزاراً لطلب الاستشفاء والبركة، ودفع الشرور التي يتوجس منها الناس رجالاً ونساء.

تاريخياً، يعدّ حدد من آلهة العرب الأنباط.. أقيمت له أنصاب ومذابح حيث تقدم القرابين للآلهة.. منها مذبح خربة التنور قرب الطفيلة.. وهو مزخرف، وعند أحد طرفيه نحت تمثال للإله «هدد» أو «حدد».. وعلى الطرف الآخر نحتت أغصان لنبات من نباتات المنطقة، إضافة إلى منحوتات أخرى نقشت على الحجارة الكلسية جاءت على شكل رؤوس لنساء.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأنباط كانوا يقيمون الأنصاب والتماثيل لآلهتهم في الحاميات والمدن التي أقاموها على طرق تجارتهم.. مثل «ذو الشرى» و«اللآت» و«مناة» و«شيع القوم» و«حدد» وغيرها، ندرك أن نصب حدد مقابل القنية هو من آلهة الأنباط، وبقي محتفظاً باسمه.. وقد ذكرنا في البدايات أن طريق تجارة الأنباط يخرج من عمان (عمون) إلى جرش ثم دمشق، بحيث يحاذي مجرى نهر الزرقاء، ثم القنية التي تعدّ من قرى الزيود وهي أقرب إلى جرش من أي قرية أخرى من قراهم.

5. الشيخ أحمد: يقع مقامه في أرض خالية شرق بلدة القنية، شمال الطريق المؤدي إلى غريسا.. لم يقع إلينا سبب تسمية هذا المقام، وقد ورد وصفه في الحوارية الشعرية بين الشاعرين عيد أبو جابر وخلف الناصر.

قال الشاعر عيد أبو جابر:

وخلف خلى الواد من غربيك

خلى الولي يناغي الطيري

صوب الرياشي وأنا إللي اهديك

بالقول يضرب زواميري

والشاعر خلف الناصر يجيب:

عندي رحب ماهي رحّبك

منبوت للزرع والتين

وبين ولي ساجد لربك

وبعيني شفت المحاجين

6. النبي هود: عرف الزيود مقام النبي هود خلال رحلاتهم إلى جرش وعجلون التي كانوا ينتجعونها في سنوات القحط.. وهذا المقام له مكانة دينية في أغلب مناطق الشمال.. وقد سميت قرية النبي هود بهذا الاسم لوجود المغارة التي يقال إنه أقام فيها، وتقع قرية النبي هود جنوب شرق جرش وهي مطلة على طريق عمان إربد.

الشيوخ والمخاتير

في مطلع القرن الثامن عشر كان شيخ قبيلة الزيود حمدان الحمّان النواصرة.. بعد وفاته برز شهاب الحمد مؤثراً في علاقاته المتصلة مع فروعها القريبة والبعيدة.. فقد كان دائم الزيارة لعائلة الزيود في سيلة الحارثية بجبل نابلس (زمن الحكم العثماني)، وفي بداية زمن الإمارة أنذر الأمير عبدالله الأول ابن الحسين بتجمع بعض قبائل البلقاء بقيادة سلطان العلي العدوان وابنه ماجد (4 أيلول 1923) لإشهار السلاح بوجه الحكومة، مطالباً بحصة عادلة للأردنيين في وظائف الدولة الوليدة التي استولى عليها الاستقلاليون من غير أبناء البلاد، بالإضافة إلى بقايا العداوات القبلية القديمة مع بني صخر.

بدأت الحركة يوم 6 أيلول، وأخمدت قبل أن تصل إلى عمان التي كانت قرية ناشئة بحكم اختيارها عاصمة للإمارة (كان مقر الأمير في ماركا)، أصبح شهاب مقرباً من ديوان ومجلس الأمير الملك المؤسس عبدالله الأول ابن الحسين.. في عام 1925 رافق موظفي الأراضي (علي الكايد العتوم والمساح عودة الزعمط) لتوزيع أراضي الواجهات العشائرية على الزيود بعدالة.

بعد وفاته في الأربعينات من القرن الماضي أصبحت زعامة شيخ الزيود فخرية في شخص قاسم الشهاب وسعود الحمدان.. ولكن العلاقة الفعلية بين الزيود والحكومة كانت تتم من قبل المخاتير.. ولا بد لنا من سرد وظيفة المختار التي ورثتها المملكة العربية السورية والإمارة التي كانت.

كان للمختار دور مهم في مجتمعه على ساحات بلاد الشام كلها زمن الحكم العثماني.. كانت وظيفته متمددة من طرابلس الغرب في ليبيا إلى الجزيرة العربية... تشمل القرى والنواحي وحارات المدن، ما عدا القبائل البدوية التي تتصل بالحكومة بواسطة شيخ القبيلة.... بدأت وظيفة المختار الرسمية زمن الدولة العثمانية من سنة 1864.... حددت المادة 59 من قانون الولايات العثماني تعيين مخاتير في دوائر النواحي بالقدر اللازم لكل قرية تكون مركزاً للناحية... مع مجلس هيئة اختيارية يتبع انتخابهم ومدة ولايتهم لأحكام ونظام تشكيلات الولاية.

حددت المادة 60 من قانون الولايات وظيفة المختار.. بأنها إعلان ما يبلّغ إليه من طرف مدير الناحية من القوانين والأنظمة وأوامر الحكومة للناس في القرى... وجمع أموال الدولة المطروحة على سكان القرى، وتحصيلها بموجب قرارات المجالس وتذاكر التوزيع التي يرسلها مدير الناحية... وجلب الأشخاص المطلوبين... وإخبار مدير الناحية عن المواليد والوفيات في القرى والمزارع.. والاهتمام بالنظام ومتابعة الأفراد التابعين لضابطية القرى مثل النواطير والحراس... ومتابعة شؤون الزراعة والتجارة في القرية... واستلام التبرعات للأعمال الخيرية... ومن واجبهم أيضاً المحافظة على أموال الأيتام، وأملاك الناس الذين يتوفون بغياب ورثتهم... وإخبار مدير الناحية عن الأراضي الخالية من العمران والقابلة للزراعة... وتعمير الآثار الخاربة في القرية، وإدارة المكاتب، وتوزيع التكليف على العمال الذين يشتغلون للحكومة... وأن يتحروا في القرية

عن المجرمين والفارين ويسلمونهم للحكومة... وأعطت صلاحية للهيئة الاختيارية بمراقبة المختار.. إذا ارتكب خطأ في عمله فعليهم تبليغ القائمقام بواسطة مدير الناحية.

سنة 1882 كانت أوراق المختار تصل من القرية إلى وزارة الداخلية في الأستانة بتسلسل مدهش... المختار يكتب ورقة علم وخبر عن عدد النفوس في القضاء، ويختمها مجلس الهيئة الاختيارية ثم يرسلها المختار إلى مركز القضاء... يقوم مأمور النفوس (موظف الإحصاء) بتسجيل كل ما يرد إليه من مخاتير القرى، ويرسلها إلى مركز اللواء كل ثلاثة أشهر مرة.. ومن ثم ترسل إلى الولاية ومنها إلى نظارة الداخلية (وزارة الداخلية)...

كان المخاتير والهيئة الاختيارية في الأردن منتخبين من قبل أهل القرية... وكان هناك مختار للطوائف المسيحية.. ومن النوادر التي تروى عن المخاتير... أن الحكومة العثمانية وزعت عليهم مغلفات مختومة، وطلبت منهم ألّا يفتحوها إلّا بعد وصول تبليغ منها... وذلك قبل إعلان الحرب العالمية الأولى... يوم 13 ـ 8 ـ 1914 أرسلت الحكومة إلى مخاتير تطلب فتح المغلفات... وجد المخاتير كلمة واحدة.. السفر برلك... المقصود النفير العام والتجنيد للعسكرية استعداداً للحرب.

تداول وظيفة المختار في قبيلة الزيود سلمان المعلا في البداية، وقد تسلسلت وراثة إلى الابن سلامة والحفيد أحمد.. والمختار عيادة الحمد الجنادا.. والمختار قاسم الخشم.

شعراء

برز شعراء مبدعون غزيرو الإبداع من قبيلة الزيود، متأثرون بحسن الزيودي الملقب بزناد البلقاء (عاش في القرن التاسع عشر)، الزناد كان مثلاً في وجدان الأردنيين القدماء... يقولون عن الرجل الشجاع صاحب الهمة العالية: فلان مثل الزناد... لقبوا حسن الزيودي زناد البلقاء... لأن أشعاره كانت تقدح في همم الناس مثل قدح الزناد:

الزيودي قال فن

بالعداوين إن لفن

طردهن للخيل سن

مع سناين جندويل

لا يغيب عن البال أن الجندويل حي من أحياء وادي السير الشمالية... قرب مدينة الحسين الطبية... ويظهر أنه كان مسرحاً للمعارك القبلية بين البلقاوية ومنافسيهم زمن الدولة العثمانية، وصل إلينا بالرواية بعض من أشعاره، منها قصيدة قالها حوالي عام

1870، ويبدو من مضمونها أنها قيلت عن الغزو القبلي بين بني حسن وبني صخر في مرج البقعة، بعد أن أرسل الشيخ علي العدوان مقلدة (ناقة تحمل طرف شقة سوداء نخوة للفزعة):

خيل من السلط لفنا

غرب «المدور» صابحنا

ينتخوا قوموا يا أهلنا

راحت «البلقا» دمار

شلنا رحيل بنزيل

ومرينا شبيين بليل

ومن فوق الكوم الطويل

بطاب كراع إلنا مزار

يوم قرص الشمس لاح

عبينا الدنيا صياح

إللي وقع وإللي طاح

وإللي ركب مركوبه وغار

وإللي ما لحق يتحزم

دشر سلاحه وسلم

ربنا بكتابه علم

بشر الظالم بنار

وبساعة يا ملا ساعة

ردوا علينا بشجاعة

شتتوا شمل الجماعة

وشيبوا روس الزغار

يلكدوا من كل نية

ضيقوا الدنيا الفظية

واذبحوا من فوق مية

وكرفتوهم بالبيار

صاح ابن قلاب صيحة

وينهم أهل المليحا

وردوا وردتهم مليحة

واغربت شمس النهار

زغرتن شقر الذوايب

واقرطن سود العصايب

ينخن عيال القرايب

ردو لا يغشانا العار

المشقبي والعموشي

مثل قطات الوحوشي

الحاظر منهم يهوشي

كل زراعة وإلها بذار

يا فرحتي يا أبو فلاحة

غول مدرع بسلاحه

يصيح وعالي صياحه

اذبح والرب الغفار

يا فرحتي يا ال دلبوحي

من قابلك فارق ال روحي

سموك ذباح ال روحي

إحسني وما ترضى العار

يا خزوتي يا أبو ثنية

ترتعد مثل الولية

خايف من قرب المنية

وربك ملاك الأعمار

حنا سباع البر حنا

والعادي لنه وصلنا

لو خذا النهار منا

نسنحه تالي النهار

انتو سباع البر وحنا

دايم قناصينكم حنا

والسيوف ال يلمعنا

لونها مخضب حَمّار

حنا يومنا نلفيكم

نرسل الطارش عليكم

ونقعد النايم بيكم

وناخذ منكم جبسة نار

الشاعر خلف الناصر المعلا كان مؤثراً في مجتمعه بأشعاره ومواقفه الساخرة من الحياة وبعض النماذج من الناس.. توفي بالسبعينات من القرن الماضي... كانت حالته الاقتصادية بسيطة ومتواضعة رغم أنه واحد من أحفاد جد عشيرته، ولهذا يشكو حالته إلى ولده طاهر، ويقول:

يا طاهر المحروس ما حنا تلابيش

لا صار إنّا من كبار الجهامة

لا أبتغي قصور ولا أبتغي معاريش

وحياة دين الله يمين قصامة

جدي قال هلا يا طلابة العيش

ونادى غسلوا عليهم يا سلامة

الشاعر ينعى وضعه الاقتصادي مع رقة الحال، ويفتخر أن جده كان يدعو الناس إلى العشاء... والعشاء كان الوجبة المهمة عند عربان الديرة... في بعض سنين القحط كان الشيخ المقتدر يقدم وجبة العشاء لكل عربانه والأغراب الوافدين على القبيلة.. ولهذا يسمونه «المصوت بالعشا»... ومن أشهر المصوتين بالعشاء في الزمن الماضي الشيخ مجحم بن مهيد.

كان لخلف الناصر صديق وند في الإبداع هو عيد الحمدان أبو جابر، الزاهد بتربية الماشية، ويعتمد على المتاجر في تموين بيته، خاصة الإدام من سمن وزيت، وعيد من الرواد الأوائل في الاغتراب والعمل، ينصحه خلف بقوله:

عيد يا صاحبي مجنون

مثل العرب ليه ما تساوي

تساوي كثي والكثير سمون

وتنهض قلانك علاوي

الكثي هو الجميد المعروف، وباللغة يسموه «الأقط»، ويظهر أن علاوي هذا كان أحد التجار الذين يتموّن عيد من عندهم ويشتري الزيت بالقلن.. جمعها الشاعر بقوله «قلانك»، خلف هذا رجل ساخر بشعره وأفعاله وأقواله، تروى عنه نادرة تستحق التأمل بذاك الزمن، وقد صغتها في الحكايا الأردنية كالتالي:

كانت فترة الحكم العثماني لبلادنا صعبة، خاصة بأواخره.. حينما ظهرت بوادر التعسف والاضطهاد إللي أدت لإعلان الثورة العربية الكبرى... كان الشرطي... جندي الفرسان إللي يسموه في هذاك الزمن الجندرمة، وأصل الكلمة فرنسي، كان عسكري واحد قادر على تخويف قرية بحالها، أو مضارب عرب من عشر بيوت شعر... كان يمثل سطوة تخوف إللي يسمع بيه قبل إللي يشوفه... الجندرمة هذا ظهر بفرسه على الأفق بطريقه لمضارب القبيلة... الناس خافوا واستعاذوا بالله من شره وشر جيته.. قال لهم خلف: إيش رايكو أخليه يركض بين بيوتكم مثل إللي مضيع حاجة؟؟؟ قالوا له لا تبلانا بشره... قال لهم انضبوا ببيوتكم لا حدا يبين وخلوا الباقي علي... وهذا إللي صار. الرجال انضبوا بالبيوت والحركة ماتت بين النزل والمنازل، خلف تصنع التعب والمرض

ونادى بطول صوته على الجندرمة.. يا خيال.. افلح.. جنب جاي للقهوة... الجندرمة كان متعب وجيعان.. قصد بيت الشاعر.. طيح عن فرسك واربطها وما تواخذني أنا إنسان عاجز الله لا يبلاك.. فوت عالفراش.. خذ الدلة وقهوي حالك.. الجندرمة قعد وتقهوى... بعد السلام.. ويلا هلا ويا مرحبا.. قال له خلف: أنا لحالي وشوفة عينك.. من الصبح ألد للدرب وأتمنى ضيف شرواك أتغدى معه.. شايف الديك العتقي هذاك.. اعمل معروف اقضبه واذبحه حتى راعية البيت تطبخه إلي وإلك ناكله.. الجندرمة ما كذب خبر، قام وده يقضب الديك.. هرب الديك وظله يركض وراه بين المنازل... والرجال فارطين ضحك وهم يرقبوا من مخابيهم لحين ما قضب الديك وذبحه.. طبعاً كان قصد خلف السخرية من المرعب هذا إللي ظهوره بين المضارب والقرى يستدعي البسملة وقراءة المعوذات... كان قصده يفهم الناس أنه هذا بني آدم مثله مثلهم.

لخلف حواريات شعرية مع صنوه عيد أبو جابر

خلف أغلب مسكنه شرقي بلدة القنية في منطقة اسمها الشيخ أحمد إللي وصفها عيد بالولي، وذكر فيها أنه خلف رحل مع الراحلين جهات جبل عجلون:

وخلف خلى الواد من غربيك

خلى الولي يناغي الطيري

من ضمن الحكايا إللي يتناقلوها الرواة من جيل لجيل أنه خلف الناصر يفاخر عيد أبو جابر بمنزله بين البساتين والميّة ... يقول له:

عندي رحب ماهي رحّبك

منبوت للزرع والتين

وبين ولي ساجد لربك

وبعيني شفت المحاجين

عيد شاف أو تخيّل ربابة خلف مكان منزله رد عليه يشكو له وحدته وغربته في واديه ويمازحه ويقول:

يا خلف قلبي يحسّب بك

مالي مهرّج يسليني

غرّبت وقرّبت لرحّبك

وجدت أهيلك فظيعيني

وع مطرح البيت وقربك

أتخمش الزرع والتيني

لقيت ربابتك داشره تسّبك

عالدار يلعب بها حصيني

الشاعرعيد الحمدان أبو جابر من أوائل العمال المغتربين من القبيلة، عمل في فلسطين وفي مشاريع شركة بترول العراق بالرويشد، له حوارية شعرية مع ابن قبيلته الشاعر محمد الحمد الخالد، الذي كان يعمل على طاحونة القنية، بينما عيد في صحراء الرويشد يعمل مع الإنجليز.. وقد أوردتها في الحكايا الأردنية مع التعليق كالتالي:

أفتيك ببنت لها كاس ممرور

أشرب أنا وياه كاس الصداع

لها وكيل دايم الدوم مامور

وبين على الدنيا رفيق النزاع

هذولا بيتين من قصيدة الشاعرالشعبي محمد الحمد الخالد... لاحظوا معي مطلع البيت الأول يقول فيه أفتيك... أفتيك بمعنى أحزرك أو أسألك سؤال... وعادة ما يتبارى شعراء البدو بالألغاز والحزازير... والقصيدة هذي مع حزارتها إلها قصة وحكاية... بعد تأسيس الإمارة واستتباب الأمن مع انتهاء الغزو القبلي... مرت على الأردنيين سنين من القحط والجفاف... طبعاً صاحب الأرض إللي خسر الموسم بالزراعة بده يدبر معاش لعياله... كثير منهم طاح الغور وقطع الشريعة على فلسطين مشي على رجليه... لما وصل الساحل الفلسطيني واشتغل بالبيارات والموانئ وعوض خسارة سنته من الفلاحة.

الشاعر محمد الحمد الخالد افتقد صديقه الشاعر عيد الحمدان أبو جابر... عيد بدال ما يغرب مع الناس شرق، وراح يشتغل بشركة بترول العراق جهات الصفاوي والرويشد في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي.

هذولا بينهم رفقة عمر وعشرة القرابة والجيرة مدة طويلة... غاب عيد مدة طويلة عزت على رفيقه محمد، وأرسل له هالقصيدة إللي يقول بيها:

نبدى بذكر إللي عن كلام يزور

الواحد المعبود بابه وساع

وذكر النبي ريحته شمطلي وبخور

والمومية تبري عليل الوجاع

شديت أنا ثنتين من حيل الخور

منقيات من ساس هجن طواع

عليهن الديباج والجوخ منثور

وباقي الحلايا بسواق المباع

يمدن من الديرة مع فجة النور

يمشن بياح وركضهن بالهزاع

يجن غلمان عندهم قرم مسطور

عند أخو خضرا عد هرجك بساع

يا عيد يا مشكاي قلبي كما الصور

يصبح عليل من المرض والوجاع

عبو قذيله دونه التبر منثور

وفرقاه عالمشتاق سم الأفاع

أفتيك ببنت لها كاس ممرور

أشرب أنا وياه كاس الصداع

لها وكيل دايم الدوم مامور

وبين على الدنيا رفيق النزاع

حينما وصلت القصيدة إلى عيد أبو جابر بالحرّة السودا إللي تصير ما بين الأزرق وجبل حوران انبسط بيها ورد على محمد يقول له:

نبدي بذكر الله دايم بتهليل

ونسبحه من فجة النور لليل

ذكر النبي غالب جميع التعاليل

والله على كل الخلايق شريف

من خلف ذا شديت هدس الحناتير

ما يحض من كثر السفر والمشاوير

إللي إليا زمر كما هفه الطير

أسرع من إللي مجهد بالرفيف

يركب عليها القرم ولد العبيد

سويلم على قطع الفيافي يزيد

يا حلو ركوبه فوق الحديد

أسمر على أسمر زاهي باللصيف

تمد من عند المعازيب بالهون

ماكل وشارب وحامد الله ممنون

دربك سماح وجانب الخط مسكون

والكيف مشي الهدس فوق الرصيف

وتلقى ذلول مكلّفه بالشّداد

مرباعها بأرض السهل والحمادي

ترعى زهر نوار من كل وادي

واجلس عليها يالغلام الزريف

ملفاك نهر طايح من وهاريف

إللي شرابه دايم الدوم عالكيف

يا مروي الأشجار والزرع والريف

ومسقم المسكين هو والضعيف

خل الذلول وكد يم المعازيب

ناس يهلي بك وناس بترحيب

ومحمد يفرح إن وتنه نجاجيب

تراه يفرش لك فراش زريف

نلاحظ أن عيد أبو جابر بدأ قصيدته بذكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه الكريم... وبعدين شد مرساله على سيارة إللي كانوا البدو يسموها «الهدس»، واختار مرساله أسمر اللون من لون حديد السيارة... وبعد ما وصلت السيارة لنهاية الطريق جهز له ذلول مكلفة بالشّداد حتى يركب عليها ويصل القنية جنوب جرش ... إللي هي مسكن صديقه محمد إللي يفرح إن وتنه نجاجيب، ولا بد ما يفرش لضيفه فراش زريف... وطبعا أكيد رح يكرمه ولهذا يكمل عيد قصيدته:

عقب الغدا إظهر عليه الوداعة

واهرج بلطف المعرفة والخضاعة

وأعطي محمد من زريف البضاعة

خط على وجوه الطلاحي سفيف

قول من يم شرحك يا ودي فهمناه

الله وكيل الكل والبنت دنياه

نستغفر بكل ساعة ونرجاه

الواحد إللي عالخلايق منيف

يا خال شرحك سرنا وارتضينا

هذا الدهر يصفى ويعكر علينا

مر يجي معنا ومر علينا

ومر جماد ومر زايد يريف

يا خال أذكرلك مرابع بلادي

بيها العجاج وقاطبة بالسوادي

وبيها صليب مألفه بالعدادي

وتسمع أصوات طالبة للرغيف

اللغز في القصيدة هو الدنيا مثل ما ذكره عيد بحله إله... وهو يوصف لنا بالقصيدة الغبار الأسود إللي يلف المنطقة إللي يشتغل فيها... ويذكر عن كثرة قبائل الصلبة حول المنطقة وإللي يجوا على العمال يطلبوا الطعام...

قدمت الجندية الأردنية أكثر من شاعر في صفوفها.. البعض نظم الشعر بالفصحى، والكثير جاشت نفسه بإبداع الشعر الشعبي الذي لم يدوّن أغلبه مثل الكثير من المرويّات التي تناقلتها الأجيال.

مثل حالة المئات من الأردنيين انفك الوكيل المتقاعد أحمد سليم الفليح الزيود من الدراسة في الصف الثاني الثانوي بسبب ضيق ذات يد والده.. تحزّم بالقايش في مركز تدريب الأغرار، وشد الطماقات في سلاح المدفعيّة، كما يروي في مذكراته المخطوطة، ببساطة الحديث في شق بيت الشعر أو مضافة أردنية جمعت أمسيتها حرّاثين وعمال ورعاة بعد يوم عمل طويل.

منذ عام 1958 إذ لبس، وكلمة لبس في عرف الأردنيين القدماء تعني تجنّد في الجيش وارتدى لباسه المتميّز.. وحتى تقاعده في السبعينات من القرن الماضي يروي الجندي الشاعر أحمد السليم ذكريات الأغنام والزراعة والحرب، مع أسماء أعلام من الرجال على أفق السياسة والجنديّة في المملكة، وشهداء قضوا في سبيل الوطن.. وطرائف يتبادلها المقاتلون وهم يطفئون نيران النابالم في الخنادق.

بالإضافة إلى أشعاره التي قال بعضها بين مربض المدفع وخندق الطعام، حيث نشبت لقمة الخبز في حلقه عندما استشهد زميله محمد المومني بين الخان الأحمر والعيزريّة شرقي القدس:

لهم الذرى دون العباد مساكنا

وتاركين السهل للقائلين الكلاما

وهو يصف بعض المعارك التي خاضها (الكرامة)، محدداً جغرافيّة المكان، كحال عشرات الشعراء الذين وثّقوا الوقائع الأردنيّة:

ومدافع في يرقا تعطّشت للقائهم

وضباط رصد يدققون النار

وأما مشاة الجيش فعقلوا أقدامهم

وتسلّحوا بما تسلّح به عمار

فهو يصف حال العربي بشعره الشعبي وصفاً أقرب إلى اليأس منه إلى التمرد الذي نزع إليه كثير من الشعراء الشعبيين خلال القرن الماضي:

ليت أمي لم تلدني ليتها كانت عقيمة

في مولدي فرح أبي وقدم للناس الوليمة

ظن أني مثله أحمل أفكاراً عظيمة

فخيبت الظن وأصبحت عنوان الهزيمة

لا أزور أختي بدارها إلاّ بجواز أو قسيمة

تحوي مذكرات أحمد السليم المخطوطة وصفاً متميزاً لحياة الأردنيين في منتصف القرن الماضي، خاصة اهتمام الرجال بتدريس أبنائهم رغم الفقر والرحيل المستمر خلف المراعي، وحاجة الحقل إلى حرّاث وحصّاد، وحاجة الماشية إلى راعٍ.. وهذا الوصف نجده في مذكرات أغلب رجال السياسة والجنديّة الذين تخرجوا من الجامعة السوريّة والجامعة الأمريكيّة في بيروت وغيرها.. وهي تجلو غوامض كثيرة من تاريخ الأردن لم ترد في أسفار المؤرخين الرسميين.

كثير من الأشعار الشعبية العربية يرسخ في أذهان رواته، وينسى اسم مبدعيها لأنها قصيرة...

قال شاعر شعبي زيودي مجهول:

سمرين يا لابسة الجبة

يا شين وارخي ثناياها

الخيل ترعى على الصبة

وسدحة على الشيح مسراها

الصبّة: هي كومة القمح أو الشعير، ولما الخيل توكل من الصبة يعني أصحابها مدلّلينها... ويظهر أنه راعي سدحة فقير حتى يسري فيها على البرية ترعى الشيح.

في منتصف الثمانينات من القرن الماضي برز على الساحة الإبداعية الأردنية الشاعر حبيب الزيودي... كتبت عنه عندما توفي 27/ تشرين الأول/ 2012 ثلاث مقالات اخترت منها: «ينتمي حبيب الزيودي إلى عائلة الفقراء شبه المقدّسة عند الزيود.. حينما ولد حبيب في الزرقاء عام 1963 كانت الهاشمية في بدايات مشروع هجرة من الريف إلى المدينة... تحوّل الرعاة والحراثون والحصادون إلى عمال في مصفاة البترول... ثمان

ساعات عمل ويعودون إلى منازلهم... وقد هاجرت أغلب فروع قبيلة بني حسن إلى الهاشميّة لهذا السبب، وأصبح عمل الفرد منها في المصفاة موازياً للبس العسكريّة عند الآخرين... لا يغيب عن البال أن أغلب الأردنيين يصفون المجند الجديد في الجيش أنه «لبس عسكري».

تلقى حبيب أولى الصدمات بانفصاله عن والدته... انشدَّ إلى أخواله البكور، وهم فرع من الزيود في المفرق والهاشمية والعالوك حتى أنهى الثانوية العامة عام 1983 ... حينما يتحدث عن أحد أخواله تبرق عيناه بعاطفة جيّاشة... تذكرت حينها طفولة وصبا الرئيس الشهيد هزاع المجالي عند أخواله الونديين في مادبا ... التقيت به في الإعداديّة.. جاء عبر طريق غريسا الترابي يحمل بواكير إبداعه على دفاتر المدرسة بقلم رصاص... نصحته بإكمال الثانوية التي حرمت أنا منها... أصرّ عليه والده أن يلتحق بسلاح الجو الملكي الأردني طيّاراً... قبل أن يجلس في مقعد المتدربين بالطائرة استنكف بالاستقالة مما أغضب والده الذي يبحث له عن مستقبل آمن... والده حميدان السليمان الفقير كان علماً على أفق احتفالات المملكة بأعياد الاستقلال، فقد كنا نذهب إلى السينما لمشاهدته في جريدة الأردن الناطقة، وهو يحمل الراية الأردنية في أول الطابور... ومثله حمّاد سالم الهقيش والد الوزير سلامة حمّاد... فقد كان قائد طابور الهجّانة في المراسم لسنوات طويلة.

تراوحت العلاقة بين حبيب ووالده حتى أنهى بكالوريوس الأدب العربي من الجامعة الأردنية عام 1987.. وكنت أنا قد كتبت سبعة مسلسلات تلفزيونيّة تحكي التحوّل الاجتماعي والاقتصادي في حياة الأردنيين... ذات يوم ونحن نهبط نحو عين غزال أسمعني أول بيت في قصيدته المذهّبة... يا صاحب التاج روحي تفتدي التاجا... أوقفت السيارة وقد ظن هو أنها بنشرت، حاول النزول فشددته من كتفه وقلت له: أكمل القصيدة... عد إلى الهاشمية... إلى العالوك... إلى حمرا حمد المهم أن تكمل القصيدة،

ذكرته بحسد الفرزدق لجميل بثينة الذي قال بيتاً من الشعر، كان الفرزدق يهوّم بين البصرة والحجاز بحثاً عنه... حينما ألقى القصيدة بعد حين وأذيعت ألحاناً وغناء.

طار حبيب إلى المغرب ببعثة دراسية للحصول على الماجستير في الأدب العربي... لم يكملها... عاد بعد حين وأخبرني أنه لم يصمد في الغربة... كانت أشعاره قد تجاوزت حدود الوطن، وصدر ديوانه الأول (الشيخ يحلم بالمطر)،وللعنوان دلالة على حياة الطفولة التي عاشها حبيب الزيودي... ففي بيت الشّعر (بفتح الشين وشدة)، وكلما حلّ تشرين على القبيلة، ينهض الشيخ الأردني من أمام النار متلفعاً بفروته.. ينظر إلى السماء بحثاً عن الغيوم وهو يحلم بالمطر... ذات حين سألته كيف الحياة في العالوك... فاجأني بقصيدته التي يقول فيها: إن الحبّ في العالوك مثل الإلحاد في مكة... مازحته قائلاً: ولكن رأسك سليم على جسمك لم يقطع... ولا أثر لسياط القصاص على ظهرك... ضحكنا وهو يطفئ سيجارته ويشعل أخرى.

من يلتقي حبيب الزيودي لأول مرة يواجه شاباً خجولاً متواضعاً يجيد الاستماع أكثر مما يجيد الكلام... تردد على ندوات وأمسيات نادي دير اللاتين بالزرقاء، واستمع إلى حيدر محمود يتنبأ له بمستقبل واعد خلال إجابته لأحد الحضور في أمسية شعريّة، ولم يعلن حبيب عن نفسه، فيما بعد صرح لكمال عباسي أن عظمه لم يزل طرياً في الشعر، ولم يتجرأ على تقديم نفسه لحيدر محمود (هو وين وأنا وين).

في سهرة صاخبة لفنانين وأدباء عرب بفندق المنصور في بغداد استكان حبيب لصمته المعهود، تداول الساهرون ألحاناً وأغاني من المغرب والمشرق، قال بعض الشعراء أبياتاً من قصائدهم، لكزته بكوعي مستغلاً لحظة هدوء وقلت للساهرين: أرجوكم أن تستمعوا لشاعر قبيلتي... سكت الحضور... بدا حبيب خجولاً في إلقاء أول بيت من قصيدة.. عندما أنهاها قال الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي: هذا شعر... صفق الحضور وقال

حبيب أكثر من قصيدة، ليس في تلك الأمسية الصاخبة فقط، بل في مهرجانات بغداد التالية، ومنابر شعريّة متميزة في الوطن العربي.

خلف ذلك الخجل والتواضع يحمل حبيب رأساً متمرداً على كل عوج، مثله مثل عرار مصطفى وهبي التل، وهو يغرف من نبع عرار أكثر من أي شاعر أردني، انظر قصيدته في ذكرى عرار:

أبعد ظلالك عن كلامي　　　إني عبدتــك ألف عــام

ما مسّ برقك حين فَجْـــفَجَ في السماء سوى عظامي

ذات حين وفي احتفال بلديتنا الهاشمية حيث ولد حبيب وترعرع كنت عريفاً للحفل، قدمته للحضور قائلاً: لا يخدعكم ذلك المبدع الذي تغنى بالملوك والسنديان وبلوط العالوك ودفلى وادي الزرقاء، فخلف ذلك كله روح متمرّدة سليطة اللسان، لا تخشى من قول: «جمل عبّود أجرب»... قام حبيب بقلب الفروة بطناً على ظهر، واختار قصيدة ناقدة مثل السوط، وأشار إلى استفزازي له حتى يلقي قصيدة لم تنشر بعد... برقت عيناه فيما بعد وأنا أذكره بقصيدته: (ورد الرجال الغانمون وجحشتك لم تزل على مربطها)، وهي هجاء لأحد الأدباء الذين انتقصوا من إبداع حبيب وهم أكثر من واحد، والقصيدة شائعة في الأوساط الأدبيّة ولم تنشر حتى الآن مع قصيدتين أو ثلاث قصائد اقتص بها من بعض خصومه.

كان زميلاً وصديقاً للراحل حمدان الهواري، الذي توفي مقهوراً بمرض السرطان بعد سنين في السجن... قال فيه أشعاراً حفلت بها دواوينه، وأشار إلى مأساته في مقالاته المنشورة... كان قد شارك حمدان السكن فيما يسميه قصراً باذخاً، وهو غرفة ثلاثة أمتار طولاً ومثلها عرضاً قرب مسجد الحي الشرقي في صويلح، وحينما يتحدث عن حمدان الإنسان أشعر أن حبيب يتحدث عن فترة صباه، وحجارة دروب العالوك والهاشميّة تضرب أصابع قدميه الطريتين (شالوا الظعن بليلي... وتيمموا بسهيلي... لا تعتبوا يا

هيلي... غالي عليّ حمدان)... كان عادلاً في النقد والخصومة... كتب إلى رفيق صباه الكركي جهاد عبيسات يقول: والله فيك نقاء وطفولة شاعرية أكثر من مظفر النواب.

أما خصومه الذين لم يستطيعوا تدجينه فقد أوغل في عرض مثالبهم، وكاد أن يعرّيهم من أوراق التوت الإبداعيّة التي توشحوا بها زمناً أوصلهم إلى مناصب كبيرة جمعت حولها الأتباع والمريدين... كتب عن أحدهم ذات حين: إذا نسبنا كل فقرة في حديثك إلى مؤلفها الأصلي الذي لم تشر إليه... فلا يبقى من خطابك إلّا النقط والفواصل... وهو أحياناً يدير حوارية خاصة مع نفسه لا تخلو من النقد (في العصر يجلس شاعر مع عصره... ويقول له واجه مصيرك... كلنا مذبوح... حلّق بعيداً فالمدى مفتوح... حلّق ولا تذبح حمامك في هوى الممدوح).

تأثر حبيب الزيودي بخاله الدكتور الأديب محمد سلامة الزيود، وأثرت فيه شخصية عم والده سلمان الفقير: فقد وصف بيت سلمان وكأنه يصف كل بيت أردني مشرّعاً للضيفان:

قريب على الدرب للقاصدين

وصوت المهابيش في ركنه ما خمد

الوحيد الذي عندما يرقد الناس في ليله ما رقد

كلما نبح الكلب ليلاً على طارق في الدروب استند

والوحيد الذي مات من دون أن تنتشي أذناه بزغرودة أو يشم الولد.

كما هو حال شاعر الأردن عرار مصطفى وهبي التل، الذي تنقل بين عشرات الوظائف في المملكة الأولى (وأنا من سجن إلى منفى ومن منفى إلى غربة)، فإن حبيب الزيودي لم يستقر في وظيفة واحدة زمناً يزيد من رصيده في صندوق التقاعد الذي كان يسعى إليه...

من بيت الشعر (منزل الأمير نايف سابقاً) إلى التلفزيون... إلى الجامعة الأردنيّة... تحدث عن رصيد الخدمة لأغراض التقاعد أكثر من مرّة بعد أن تجاوز الأربعين، وبرّر تقلّبه في الوظيفة لعدم استطاعته تحمّل بيروقراطية الأغبياء والمتسلّقين.

قبل رحيله كان رمضان الرواشدة قد فتح له أبواب مؤسسة الإذاعة والتلفزيون... كلفه بجمع مصادر الأغنية الشعبية الأردنية... إعداد وتقديم برنامج إذاعي لمدة ساعة ونصف، استضاف فيه نجوماً من الكتاب والفنانين، ومن يقرأ زاويته في الرأي (قفا نحك) يلمس اطلاعاً واسعاً من الكاتب على الآداب والفنون العالميّة والعربيّة قلّ أن يمتاز به كتّاب آخرون.

ذات حين أمضى ساعة ونصف من الحديث مع فنانين ضريرين من سحاب.. استل منهما أغاني وألحاناً لم تخطر على بال المبصرين... استضاف الكاتب والمحلل فهد الخيطان ونشر صدى حديثه مع المبدع الجنوبي في مقالته اليوميّة... قبيل وفاته رزق بحفيده الأول حبيب من ابنه محمد... وكان قد خصّ محمد بقصيدة تشبه ما خصّ به عرار ابنه وصفي:

لصوتك حين تنادي علي من الباب بابا

حنين تهشّ له الروح يملؤني نشوة وخدر

وحين تلوّح لي بالوداع صباحاً تلوح في الضلوع

وأمضي وكلي حنين إليك

أنا عشت يا قمري كل عمري بغير قمر

فمد يديك كن لي المدى والندى والنظر

وغسّل بصوتك بالكركرات غباري

وعمّر إذا طوّحتني الرياح العتية داري

تشردت في كل أرض فكن لي المقام وكن لي البلد

ويا عمد البيت لا كان بيت

إذا لم تكن أنت فيه العمد

ويا ولدي جعت ولكنني ما مددت يدي

وطأطأ راسي وما قلت للخبز يا سيدي

فغمّس إذا ما جعت بالإباء رغيفك

ونم مع وحوش البراري

و لا تجعل الذل يوماً مضيفك

ويا ولدي سوف أمضي

فكن أملي في الحياة الذي أرتجيه

وإن أودت بي الريح دقّ وشمي

فأجمل شيء على هذه الأرض

أن يحمل المرء وشم أبيه

ويا ولدي تحت هذا التراب

وجوه الأحباء غابت

فما اخضّرت الأرض

إلا لأن الوجوه الحبيبة صارت نباتاً

وما عاشت الأرض إلا لأنهُم وهبوها الحياة

فعش سند الفقراء

وكن لليتامى سنداً طيباً وكن للعطاشا فراتاً

وشرّع إلى الناس بابك يا ابني

وأوقد لهم آخر الليل نارك

وأولم لضيفك وارفق بجارك

وإن ولّت الخيل مدبرة عن غبار المعارك

فعمّد تراب بلادك بالدم

لست أباك إذا لم تمت دون دارك

قبيل وفاته أجرت معه إذاعة الجامعة الأردنية حديثاً أدهش مقدمي البرنامج بقوله: كان عليكم أن تسألوني ماذا يفعل حبيب الكهل في العيد غير انتظار الموت؟... عاتبته أسرة البرنامج فأجابهم: في التاسعة والأربعين مات عرار وها أنا بلغتها... قبل أعوام كثيرة كنت أطلب من حبيب أن يرثيني عندما أموت... كان أحياناً يتطيّر ويحتج... ذكّرته بأولئك الشعراء في بلاط العباسيين الذين كانوا يجهزون قصيدة رثاء الخليفة أو أحد وزرائه قبل الموت، وكانت حجتهم أن البلاط يستعجلهم بالرثاء فور وفاة الرجل، والاستعجال هذا يؤثر على إبداعهم الذائع، فكانوا يجهزون المرثية ولا يعوزهم إلاّ وضع اسم الميت... ضحك كثيراً وفي مرة ذكّرته برثائي فأخبرني أنه بدأ مطلع القصيدة (ابكيه معي يا غريسا)... لم أفكر في يوم من الأيام أن أعيش حتى أرثي سنديانة العالوك حبيب الزيودي.

عاداتهم وأمثالهم

تعدّ الأمثال جزءاً من ثقافة الشعوب الدالة على شخصيتها وعاداتها وتقاليدها.. وقد صاغ عرب الجاهلية آلاف الأمثال المقتبسة من أشعارهم أو أقوال شخصيات الحكايات التي قيل فيها المثل.. إلا أن الشعوب العربية صاغت أمثالاً بلهجتها الشعبية، تضمنت ما يدل على شخصيتها من عادات وتقاليد وما مر على شعوبها من أحداث.. تأثر الزيود و«بني حسن» بالأمثال الشعبية التي قالها البدو في الجزيرة العربية وبلاد الشام.. وفي الوقت نفسه صاغوا الأمثال والحكايا عن عاداتهم وحياتهم كما وصلت إليّ بالرواية.. وقد اخترت مجموعة من الأمثال مع حكاياتها، وأثبتها باللهجة الشعبية القريبة من الفصحى لسهولة فهمها على الجيل المعاصر..

تندر البلقاوية و«بني حسن» ومنهم الزيود على رجل يقول خبراً واحداً صحيحاً من عشرة أخبار يؤلّفها... وقد تداول أهالي غريسا وصف الشاعر لهذا الرجل:

ارشود شرق على حايل

زرق الحناتير ما جابّنه

الكذب بأركانهن ميل

والصح ما عاد يلقنه

الحايل فرس، وزرق الحناتير السيارات، والصح بلهجة أهل البلقاء يعني الصدق..

من أبلغ أوصافهم للنكبات أو المصائب شيب العين... ويقصدون رموش الإنسان التي تتأخر عن الشيب كما في باقي شعر رأسه... يشكون من انحراف ومشاكسة أحد أولادهم بقولهم: شيّبت عيني.

الشاعر الشعبي شبلي الأطرش استعمل المفردة في واحدة من قصائده المشهورة في مجتمع غريسا والبلقاء القديم... يقول:

يا شيب عيني يوم شفت اللواليح

شغل الطموح لشوقها هاب الريح

ومن الزهاب إللي حصل إيش ما ليح

برني لذيذ وتمر خاص من الطعامي

يا هية ياللي فوق عشر ركايب

اقهرولي من فوق عالي النجايب

خذوا سلامي لخاص القرايب

بحوران يفهموا كل لغا كلامي

كانوا يستمعون إلى الروايات والأشعار في سهراتهم التي غالباً ما تتم في بيت كبيرهم، أو يتداولونها في بيوتهم حسب الدور.. وهم فضوليون في سماع الأخبار من قادم من مكان بعيد.. مثل المدن أو مضارب قبيلة أخرى.. إذا شاهدوا مسافراً على فرسه وهم

يعرفون المكان الذي جاء منه.. يدعونه إلى منازلهم بقولهم: جنب جاي يا خيال أعطينا علومك من البلاد إللي جيت منها.. وهذا السؤال استمر في المجتمع العربي منذ عصر الجاهلية حتى زمن ماقبل الراديو والتلفزيون.. ذكر جميع مؤرخي العصر الجاهلي والإسلامي اعتراض الناس للمسافرين يسألونهم.. هل من خبر؟؟

الشاعر محمد بن عبد الله العوني وصف هذه الحالة في شعره بقوله:

يقولون لك يا صاح عطنا علومك

بلدان نجد عقبنا وش جرى لها؟

قل كل بلدان القصيم وغيرهـــا

عن الخوف زاموا دون جالة رجالها

مير داركم من عقبكم تندب الثرى

تبكي على الماضين واعزتا لها

العلم في عرف البدو هو الخبر.. يقولون علّمنا وش صار.. هات بضعنا وعلّمنا عن السالفة إللي صارت بين الجماعة.. كان الرحالة والمؤرخ اللبناني أمين الريحاني يستغرب ترداد الملك عبدالعزيز ابن سعود لجملة.. أنا أعلّمك بالصحيح.. ولأن الريحاني قادم من أمريكا فالجملة جديدة عليه.. في حالة انقطاع الأخبار عن مسافر أو قضية مهمة لهم يقولون: لا علم ولا خبر.. ولتأكيد صحة الرواية يسألون: من علّمك؟ أو من هو إللي علّمك؟

... لما شافوا انهدام بعض آثار جرش بفعل الزلازل إللي صارت بالمنطقة... ما صدقوا أنه المعمار الضخم والجميل هذا يخرب إلّا بسبب الفساد والرشوة إللي كانت متفشية في زمن الحكومة العثمانية وما بعدها... ولذلك قالوا: البراطيل خربت جرش.

زعل جدنا على واحد من عياله وقال له: يا مالا أم الحلوق إللي تسد حلقك... طبعاً جدنا مش قاصدها لكن قالها من الزعل على ابنه...وهو حينما يزعل على فرسه إللي قامت تشاتل إبرسنها يدعي عليها ويقول: يا مالا القوم إللي تأخذك...القوم بمعنى الغزو إللي كان سائد زمن الدولة العثمانية... الأردنيون الأوائل يستعملونه للتعجب برضه... إذا طل واحد على غاغة حكي وما حدا سامع الثاني.. يسأل يا مالا قوم على إيش حسكم طالع؟... كلمة يا مالا عربية فصيحة قديمة.

سعد بن زيد مناة جوّز أخوه مالك لبنت جل بن عدي إللي اسمها نوار... هذي أهلها فرسان وعاقلين ومالك هذا فيه هبل وعقلاته حبتين...أخوه جوزه على أمل أنه الله يرزقه ولد أعقل وأشجع من أبوه... سحبه من إيده بليلة العرس وقال له لج بيتك بمعنى فوت على عروسك.. كع العريس ورا وقال أنا مش داخل...دفشه مالك وقال له لج مالا ولجت الرجم ... في شرح الحكاية أن الرجم في عرفهم هو القبر... لأنه في هذاك الزمان كانت آلات الحفر مش متوفرة عندهم... وكانوا يدفنوا أمواتهم على وجه الأرض ويحطوا فوق الجثمان رجم أحجار... تحكي الحكاية أنه الأهبل هذا فات على عروسه وهو معلق نعاله بذراعه خوف ما يضيع منه.

المرأة الأردنية في الأزمان الماضية شغيلة في كل مناحي الحياة القروية والبدوية بالإضافة إلى شغل البيت... وصفها واحد من الرحالة أنها تبدأ عملها مع الفجر وتنهيه بعد الغروب... عجين.. خبز.. جلب.. حطب... واردة على البير أو العين تجيب المي... وبرضه بالبيت غزل ونسيج غير خدمة الطفل إذا كان موجود... البنت الأردنية في هذاك الزمن كانت تشتغل أكثر من الأم... يعتمدوا عليها لشبابها وقوة عزيمتها...ولذلك إللي يشوفها بالشغل يلاحظ أنها معفرة بالغبرة وحتى الشوك معلق بشعر راسها... بعض الشباب إللي ناويين على الزواج ينفر من الحالة هذي... طبعاً البنت فخورة أنها تشتغل وتخدم البيت... ولذلك تقول للخطاب: إللي ما يريدني وأنا معفرة ما يريدني وأنا معطرة.

أبو صوي هو عود الغيصلان إللي يبقى من النبتة بعد ما تنشف بالصيف... البلقاوية عموماً كانوا يشوفوا الغيصلان بكثرة في مرابعهم وحقولهم... ومعروف عندهم أنه الغنم ما تاكل الغيصلان إلا بظروف خاصة... من خبرتهم في الحياة اليومية والظواهر الجوية... يقولوا إذا الغنم صارت توكل الغيصلان فيها لزبة... اللزبة هي شتوة طيبة مع رياح وبروق ورعود... تندروا على عود أبو صوي لأنه ضعيف ويقدر أي طفل يكسره... وصفوا الرجال ضعيفين الهمة إللي يحاولوا التنقيص من الآخرين بقولهم: «تعيرني يا أبو صوي وأنت أقل مني بشوي»... المثل مش بحاجة لشرح... لكن ذكرني ببيت الشعر إللي يقول:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل...

على مر الدهور شكا الناس من زمنهم وترحموا على الزمن إللي قبله... وأغلب شكواهم من الأحوال المعيشية والاجتماعية والسياسية، بما في ذلك أخلاق الناس وعلاقتهم ببعضهم بعضاً، الحالة هذه قديمة عربياً من زمن الدولة العربية الإسلامية الأولى... السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها سمعت قصيدة للشاعر الجاهلي لبيد ابن أبي ربيعة يقول فيها:

طربَ الفؤادُ وليتهُ لمْ يطربِ
وعَناهُ ذِكْرى خُلَّة لـمْ تَصْقَبِ
ذهبَ الذينَ يعاشُ في أكنافهمْ
وبَقيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجرَبِ
فبَرى عظامي بعدَ لحميَ فقدُهم
والدَّهرُ إنْ عاتَبتُ ليسَ بمُعْتبِ

كانت أم المؤمنين رضي الله عنها تتمثل ببيت شعر من القصيدة الذي يقول:

ذهبَ الذينَ يعاشُ في أكنافهِمْ

وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأجرَبِ

وتعلق على بيت الشعر وتقول: رحم الله لبيداً فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم... طبعاً الزمن تغير عليها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم... بعد زمن طويل مر الخبر على عروة بن الزبير وقال: رحم الله عائشة فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم... وبعد وقت قال هشام بن عروة الشيء نفسه... وبعد زمن قال وكيع وأبو السائب المخزومي اللذان بين زمنهما فترات متفاوتة: رحم الله فلاناً فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم... الزيود قالوا: تالي الزمان تغلا البلاد الشمسية وتتقدم الرجال المنسية.

يصغرون الحجر بقولهم حجيرة، ولها مكان في أمثالهم ... إذا اختلف اثنان ووصلت الحال بينهما للتهديد وأبوك وأبو قطاش والمعنى هوش باللسان... يجي المحرض ويمسك حصاة ويتفل عليها ويرميها بين المتخاصمين ويقول: هذي حجيرة الذلاّل بينكم.. ورونا هوش الشبرية والعصاة ما هو هوش الحكي... الحالة هذي عربية قديمة، وذكر الشاعر الحجر بقوله:

طرحوا أصحابهم في ورطة

قذفك المقلة شطر المعترك

المقلة: حصاة يشيلوها معهم بالسفر، وتصير مقياس لحصة كل واحد منهم من المية إللي شايلينها... يحطوها بالماعون ويصبوا المية عليها حتى تغطيها.. وهذي حصتك يا فلان اشرب... المعترك هو المكان إللي يتهاوشوا فيه على المية... يرموا الحصاة بينهم إنذار للهوش إللي بعض أحيان ياخذ أرواح ويورث ثارات.

يقول الشاعر الشعبي جحيش بن مهاوش:

خوالكم بالطيب تروي المغاليب

ولو تتبعون الجد ماحد شناكم

شناكم يعني ذاعوا الخبر السيئ عنكم... وأقرب شيء لمعناها الفضيحة... أخذوها من الشنئان الفصيحة إللي هي بالمعنى نفسه... إذا واحد من الأردنيين الأوائل عمل عملة مش كويسة... أو تصرف تصرف يضر بسمعة العيلة أو القبيلة... يقولوا له: شنيتنا... إذا ضيف مشى من عند معزبه وبس وصل أهله طلب أكل... يقولوا له: شنيت معازيبك إللي لفيت من عندهم... طبعاً هو أكل عند معازيبه أو اعتذر عن الطعام حتى مايكلفهم... لكن بعض الخبثاء من رجال هذاك الزمن كانوا يتقصدّونها نكاية بمعازيبهم.

يقولون في معرض تحملهم للخسارة أو صبرهم على الشدائد: «ياما كسّر الجمل بطيخ».. توجد روايتان لقصة المثل هذا... الرواية الأولى تقول: إذا البعير انفلت بالمقثاة إللي هي بستان البطيخ...... يحاولوا يبعدوه عن البستان لكن هو يركض وسطه ويكسر البطيخ بخفوفه.... أو أنه يرعى من البستان وبالوقت نفسه يكسّر البطيخ... الرواية الثانية تقول: إنهم كانوا يشيلوا البطيخ من المقثاة للسوق على البعارين.... لأنه البطيخ ثقيل ويحطوه بعدول ويقرنوهن على الجمل... بالطريق إذا صارت هيزعة يجفل البعير ويركض بحمله... يضغط البطيخ على بعضه ويتكسّر... وعلى كل حال ياما كسّر الجمل بطيخ ... ويقولوا: «ياما مرّ على هالجسر من جمّاله»... المثل هذا برضه أردني يرددوه الناس في الأزمان السابقة عن الأحداث إللي كانت تعصف بالبلاد.... أو النوائب أو الشدائد التي تمر عليها وياما مرّ عليها... وصفوا حالة وطنهم بجسر متين مرّت عليه

جمال كثيرة محملة بالروحة والجيّة... ومعروف جداً أن الجمال ما تحمل إلّا الحمول الثقيلة... وبقي الجسر ثابت وصامد وأهله يقولوا «ياما مرّ على هالجسر من جمّاله».

الأردنيون الأوائل كانوا يرددوا حداء حماسي لما كانوا يتعاونوا على تحميل جمالهم بالحمول الثقيلة... يقولوا أربعة شالوا الجمل والجمل ما شالهم... وأول الحداوة... ابعد يالخبل ابعد عن جالهم... أربعة شالوا الجمل والجمل ما شالهم.. والمقصود أن الرجال الأربعة نموذج للرجال الأقوياء إللي شالوا الجمل عن الأرض بإيديهم ولما ركبوه الأربعة مرادفة ما قدر يقوم بيهم.

قالوا وما زالوا يقولون: «الخال والد» يعني الخال مثل الوالد... لكن إذا مات الوالد وحلّت تربية الأيتام أو تقسيم الورثة يقولوا: «الخال يتخلّى والعم يتولّى»... يعني العم هو المسؤول عن تربية أيتام الميت والعناية برزقتهم.

زاوج الأردنيون الأوائل ما بين حركة الحياة اليومية إللي يمارسونها وما بين الأمثال أو المفردات إللي يستعملونها في مجالسهم... إذا واحد صار يطخطخ كلام في مجلسهم وما أعجبهم كلامه... أو حسوا أنه ممكن يزيدها ويجي بواحد من القاعدين ويصير بينهم شر... يقولوا للي يطعطع هذا: خلص عاد شد أعنانها... العنان: مستطيل حديد أو فضة مع الرسن يجي بثم الفرس... إذا انفلتت بالركض الفارس يشد رسنها بالعنان إللي يضغط على ثمها وتوقف... عكس الحالة هذي إذا واحد منهم حكى موضوع باختصار شديد وهم بدهم منه تفاصيل أكثر يقولوا له: ارخي رسنها ولا تهاب ما فيه بالمجلس غريب... قارنوا ما بين انطلاقة الفرس لما الفارس يرخي رسنها وما بين تفاصيل الحديث في المجلس.

المصفاة الجاذبة

كانت مصفاة البترول الأردنية هاجساً في ضمير الملك الباني الحسين بن طلال منذ عبور خط البترول السعودي (التابلاين) أراضي المملكة.. ممتداً من القيصومة شمال المنطقة الشرقية حتى ميناء صيدا في جنوب لبنان بطول 1664 كيلو متر، من الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط.

في 30/ 11/ 1956 أصدر مجلس الوزراء موافقته على إنشاء شركة مصفاة البترول الأردنية.. في ذلك الزمن كانت دول الجوار تمر بتحولات سياسية من حرب السويس، إلى الوحدة السورية المصرية، ثم إنقلاب عسكر العراق على الملكية.

شق جمال عبد الناصر الوطن العربي إلى شقين.. الأقطار الثورية التي تنادي بالاشتراكية والقومية والوحدة والتحرر.. يقابلها الأقطار الملكية والأميرية التي وصفوها بالرجعية والعمالة للاستعمار (الوصف من وثائق إذاعة صوت العرب بالقاهرة).

كانت المملكة تستورد الكاز والبنزين المكرر من لبنان عبر سوريا.. بعد إنقلاب العراق عام 1958 تعرض الأردن إلى هجمة شرسة من دول الجوار.. في الشمال سوريا..

وفي الشرق العراق.. أغلقت الحدود لفترة.. تكومت مستوردات المملكة من البضائع والوقود في موانئ اللاذقية وبيروت.

وقف الأردنيون في طوابير على محطات الوقود للحصول على رطل كاز (كان يباع بالوزن) للفوانيس التي تضيء منازلهم... الجيش على خط النار (360 كيلو متر) في الضفة الغربية.. والمظاهرات تصابح الأسواق وتماسيها.. وكل حزب يغني على ليلاه.. تغلب الحسين على المحنة بحكمته وشجاعته، وأمر بالإسراع في إنشاء مصفاة البترول الأردنية، وإشراك القطاع الخاص في ملكيتها وإدارتها تجنباً للبيروقراطية الحكومية.. هدّد الحكومة أنه سيسكن في العقبة حتى يكتمل تعبيد طريقها لتسيل واردات المملكة عبر مينائها.. أقر نظام شركة المصفاة الداخلي، وسُجلت في وزارة العدل شركة مساهمة عامة محدودة ذات امتياز، بمساهمة حكومية بلغت ربع مليون دينار أردني، من أصل رأسمال الشركة البالغ أربعة ملايين دينار.

وفي 16/ 11/ 1957 وُقّعت اتفاقية الامتياز بين الحكومة وشركة مصفاة البترول الأردنية المساهمة المحدودة.. أحيل عطاء إنشاء المصفاة إلى إحدى الشركات الإيطالية 9/ 10/ 1958، وأُحيل عطاء لإنشاء أنبوب للزيت الخام بقطر (8) إنش وبطول (43) كيلومتر؛ لربط المصفاة بخط التابلاين، وإيصال الزيت الخام إلى موقع المصفاة.

في مطلع عام 1959 سمع أهالي غريسا والقنية وأم الصليح بنزول ورشات العمل في الموقع فتوافد العمال الأوائل.. بعضهم لديه خبرة من (b c i) (يلفظونها الإيبسيه)، مثل عيد الحمدان أبو جابر، وإبراهيم الفلاح الشاعر.. وفد معهم مقبل العباس، وأحمد الفليح، وسالم الفنخور، وآخرون.. كان إرشيد الصالح الزغيريين قد بنى أول بيت قروي غربي منطقة العزيلاء حوالي عام 1958.. وبنى محمود المفلح بيتاً صغيراً هناك، سبقهم محمد العودة (أبو إبراهيم) بإنشاء أول دكانة عام 1957 في مقسم الزغيرين شرق سكة الحديد، زودتها وزارة المواصلات بهاتف لاستعمال السكان مقابل الأجر،

ولأن المسافة بعيدة بين المصفاة وأم الصليح وغريسا والقنية، والمواصلات غير منتظمة، والطرق ترابية، فقد سكن أوائل العمال في بيوت الشعر التقليدية، ثم بنوا منازل ثابتة من لبن التراب، حيث أصبحوا قرب مكان عملهم في المصفاة.

رحل قسم من الطحيمر من العالوك والمصرات ونزلوا بيوتاً مؤقتة ـ غربي المصفاة مقابل الجسور، بنوا بعدها منازلهم حول البلدية وإلى الشرق منها.. جذبت المصفاة زيود الشمال من الدقمسة والصهاة وأم بطيمة.. ومن قرى بني حسن جاء الأوائل من السميرات العموش والمشاقبة.. فقد أصبحت القرية جاذبة للعمل والسكن.

أُنشئ المجلس القروي في نهاية الستينات من القرن الماضي برئاسة الراحل محمد العقله الطحيمر.. أقام الشيخ قاسم الشهاب الزيودي منزله بجانب الطريق الصاعدة إلى حي الزغيرين (مقسم النواصرة).

ذات لقاء مع الملك الباني الحسين بن طلال استأذن قاسم الشهاب بإطلاق اسم «الهاشمية» على البلدة وجاءت الموافقة فوراً.. عبد طريق أسفلت متواضع يدور حول المصفاة من الجهة الشرقية حتى يتصل بطريق المصفاة الزرقاء، وصل أم الصليح وغريسا الجديدة فيما بعد.

منذ عام 1969 بدأ تفويض الأراضي حسب الواجهات العشائرية التي استقر فيها السكان وبنوا أول بيوتهم.. وهو نظام معمول به منذ زمن الإمارة، فالواجهة العشائرية تقسم على القبيلة التي توزعها على أفرادها.. ولم تزل حارات الهاشمية الغربية تدل على فرق الزيود، فيما أقام البرشات في الحرشة إلى الشرق حيث فوضت الأراضي للعموش والمشاقبة وعدد من قبائل بني حسن.. اشترى مغتربون في الخليج بعض الأراضي لرخص ثمنها زمن التفويض.. وبعد حرب الخليج 1990 بنوا منازل وسكنوها.

عام 1973 تأسست محطة الحسين الحرارية للكهرباء.. ثم الشركة الأردنية لصناعة الأنابيب ومحطة تنقية الخربة السمراء، مع ازدياد اليد العاملة أُنشئ إسكان الهاشمية إلى

الشرق الجنوبي من البلدة.. سكنه عمال وموظفون من أغلب مناطق المملكة، فأصبحت الهاشمية نموذجاً لمدينة متنوعة المنابت والأصول... أصبحت مدينة الأمير محمد للشباب من أبرز معالم الهاشمية .. ويجري ضم أحواض أراض جديدة إلى حدود بلدية الهاشمية الجديدة تشمل الجامعة الهاشمية والمنطقة الحرة.... تضم البلدة ثلاث محطات للوقود ويعبرها طريق دولي من عمان والزرقاء إلى الحدود السورية مروراً بقرى بني حسن التي أصبحت بلدات واعدة بالازدهار.

تعدّ الهاشمية نموذجاً للمدن الأردنية الجديدة التي أنشئت مع تطور الصناعة في المملكة، كبرت وازدهرت على أيدي العمال.. فالمدن المماثلة أنشئت من خلال مشروع توطين البدو كما هو حال مدينة الحسينية وغيرها في البادية الجنوبية والشمالية.. نفذه الحسين بن طلال بإشرافه المباشر.

حدثني الراحل الشيخ النائب العين فيصل الجازي أنه بدأ تأسيس الحسينية ببيته (الشعر) على جانب الطريق.. وكلما ذهب الحسين إلى العقبة كان يتوقف هناك يتابع حفر البئر الإرتوازي، وأساسات أول المنازل المحاطة بمضارب الحويطات.. أخيراً نذكر أن الهاشمية في عام تسميتها من مدن الثقافة الأردنية قد اشتبكت بالعمران مع الزرقاء جنوباً، والسخنة وأم الصليح وغريسا غرباً وشمالاً.

المصادروالمراجع

1 . الحسين بن طلال، **مهنتي كملك**.

2 . مارغريت موري، **البتراء مدينة أدوم الصخرية**.

3 .الدكتور إحسان عباس، **تاريخ دولة الأنباط** .

4. فردريك بيك ، **تاريخ شرق الأردن وقبائلها**.

5. بولس سلمان، **خمسة أعوام في شرق الأردن**.

6. محمود الزيودي،**ألبوم وصور**.

7. روكس بن زائد العزيزي، **قاموس العادات واللهجات الأردنية**.

8. نقولا زيادة، **المسيحية والعرب** .

9. محمد أحمد السديري، **أبطال من الصحراء**.

10. نصوص البرنامج الإذاعي حكايا أردنية.

11. الدكتور رؤوف أبو جابر، **تاريخ شرقي الأردن واقتصاده**.

12. سليمان موسى ومنيب الماضي ، **تاريخ الأردن في القرن العشرين** .

13. قاسم الشهاب، مقابلة شخصية.

14. نصر الله المعلا، مقابلة شخصية.

15. سالم البركة المعلا، مقابلة شخصية.

16. عيد أبو جابر، مقابلة شخصية.

17. خلف الفهد العدوان، مقابلة شخصية.

18. فيصل الجازي، مقابلة شخصية.

19. حسن الراشد الخليف، مقابلة شخصية.

20. خلف الناصر المعلّا، مقابلة شخصية.

21. صالح السالم الصالح الزغيرين، مقابلة شخصية.

22. قبلان الحمد الجنادا، مقابلة شخصية.

السيرة الذاتية للكاتب

الاسم: محمود عليوى الزيــودي (محمود الزيودي)

الميلاد: 1945 – غريسا / محافظة الزرقاء / الأردن

الدراسة: رابع ابتدائي

أ. الخدمـــة

1. 1961 ـ 1972 قوات الباديـة.
2. 1972 ـ 1978 إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية / منـتج برامج.
3. 1980 ـ 1994 وزارة الثقافة/ رئيس قســم الفنون الشعبية (الفلكلور).
4. 1995 التلفـزيون الأردني/ معد متخصـص بالبرامج الخاصة والوثائقية.

ب. الخبرة والمشاركة:

1. دورة تدريب في وكالة الأنباء الأردنية على أعمال التحرير الصحفي وجمع الأخبار .
2. دورتان في الأدب الشعبي واللغة السلوفاكية في أكاديمية العلوم السلوفاكية.
3. رئيس لجنة الفنون الشعبية في مهرجان جرش الثاني والثالث والرابع والسادس.
4. عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ 1974 .
5. عضو رابطة المسرحيين ونقابة الفنانين الأردنيين منذ إنشائها 1975 وحتى الآن.
6. رئيس رابطة الفنانين الأردنيين ما بين 1988 ـ 1990.
7. عضو «ممثل الأردن» في المنظمة الدولية للفن الشعبي بالنمسا منذ 1980 وحتى الآن.
8. عضو مشارك في مهرجان فنون البوادي بمصر 1986 .
9. إعداد وتقديم المهرجان الأول للسامر والدبكة الأردنية / وزارة الثقافة 1981.

10. عضو مشارك في اليوم العربي للمسرح وملتقى صقر الرشود للمسرح في الكويت 1979 ـ 1980.

11. عضو مشارك في مهرجان دمشق المسرحي 1980 .

12. عضو مؤسس لمركز الأردن / الهيئة العالمية للمسرح / اليونسكو .

13. عضو الندوة الفكرية لمهرجان دمشق المسرحي 1988.

14. معد ومقدم مهرجانات الاحتفالات الوطنية لوزارة الثقافة كل عام من 1981 – 1994.

15. عضو لجنة تحكيم مهرجان مسرح الشباب الثاني (عمان)، 1990 .

16. عضو اللجنة التنفيذية العليا للجنة مهرجان المسرح الأردني الثاني، 1992

17. رئيس الوفد الأردني إلى مهرجان الحضر للفنون الشعبية (العراق)/ 1994 .

18. باحث مشارك في الندوة الموسيقية الخاصة بآلة الربابة (مصر/ أسيوط)/ 1990.

19. عضو اتحاد الفنانين العرب (القاهرة) .

20. عضو اتحاد المسرحيين العرب (بغداد) .

21. عضو لجنة التحكيم / مهرجان القاهرة للسينما والإذاعة والتلفزيون (القاهرة)/ 1996.

ج . الإنتاج الأدبي والثقافي/ المسرح

1. مسرحية الضباع ـ دائرة الثقافة 1972/ اتحاد الكتاب العربي / دمشق / 1979 .

2 . مسرحية المحجر ـ دائرة الثقافة 1975 .

3. مسرحية رسالة من جبل النار ـ دائرة الثقافة 1976 / نشرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق بكتاب عام 1980 .

4 . مسرحية حادث بحري ـ دائرة الثقافة / مجلة أفكار 1986.

5 . مسرحية امرأة بين خمسة جدران ـ دائرة الثقافة/ مجلة الفنون 1978.

6 . مسرحية ضيف الغروب ـ دائرة الثقافة/ مجلة أفكار 1979.

7. مسرحية معايد قريتين ـ وزارة الثقافة/ 1981.

8. مسرحية بيادر وحكايات ـ مهرجان جرش / 1984.

9. مسرحية المقبرة ـ الموقف الأدبي ـ (دمشق)/ 1977 .

10. المضبوعون ـ الأيام الأردنية الفلسطينية المشتركة (عمان) 1991 .

11. ست مسرحيات قصيرة (فصل واحد).

12. مسرحية شجرة على الحدود (بالإنكليزية) مختبر كتاب المسرح (نيويورك)/ 1996.

13. مسرحية واحد صايع والثاني ضايع/ مسرح عمون (عمان)/ 1998.

14. مسرحية الشيخ والقلعة (عمان) / 1998.

د . أفــــلام قصيـــــرة:

1. مسافر في الصحراء/ وثائقي مع التلفزيو ن الكندي.

2. شيخ السردية / فيلم وثائقي مع التلفزيون الكندي .

3. القاتل وعدالة البادية/ فيلم وثائقي مع التلفزيون الأردني جائزة مهرجان كراتشي 1974.

4. نزهة على الرمال / المركز العربي/ جائزة مهرجان بغداد 1988 .

5. فيلم ليل الأحرار/ التلفزيون الأردني 1996 .

6. فيلم القافلة ـ عمان 1993.

7. فيلم الشوك والبرعم ـ عمان 1996.

8. فيلم حصن أدوم ـ وزارة الثقافة 2018.

9. فيلم الهاشمية المدينة التي بناها العمال ـ وزارة الثقافة 2020.

10.فيلم الفدين ـ وزارة الثقافة 2018.

11. فيلم نار الغضى ـ أبو ظبي 1994 .

هـ . الدراما التلفزيونية

1 . مسلسل الغدير (قطر ـ 1974).

2. مسلسل شمس الأغوار(عمان ـ 1980).

3.مسلسل قرية بلا سقوف (عمان ـ 1981) .

4. مسلسل هبوب الريح (دبي ـ 1982).

5. مسلسل الطواحين (عمان ـ 1983) .

6. مسلسل الوافي (أثينا ـ 1983).

7. مسلسل جروح (عمان ـ 1984).

8. مسلسل بيرالطي (عمان ـ 1984).

9. مسلسل محاكم بلا سجون (دبي 1985 ـ ج 1).

10. مسلسل الدفينة (عمان ـ 1985).

11. مسلسل زيد وزيدان (عمان ـ 1985).

12. مسلسل تل العناب (أثينا ـ 1979)

13. مسلسل محاكم بلا سجون (دبي 1989 ـ ج 2).

14. مسلسل التبر والتراب (عمان ـ1989) .

15. مسلسل أولاد سالم (عمان ـ 1989).

16. مسلسل وجه الزمان (عمان ـ 1988).

17. مسلسل الداهية (عمان ـ 1979).

18 . مسلسل الطريد (عمان ـ 1975) .

19 . مسلسل الشهاب (عمان ـ 1976).

20 . مسلسل من تراث البدو (عمان ـ1989) .

21 . مسلسل سبع حلقات تلفزيونية لتوعية الأسرة / منظمة اليونسيف/ (عمان ـ 1989).

22 . مسلسل المحراث والبور (عمان ـ 1987).

23 .مسلسل الرمح والصخرة (دمشق ـ 1992).

24 .مسلسل الدومة الهلالية ـ التلفزيون الأردني / (عمان ـ 1993).

25 .مسلسل الرمضاء والنار ـ المركز العربي / (عمان ـ 1994).

26 . مسلسل الأصيل (عمان ـ 1997).

27 . مسلسل خطوة إلى الأمام / التلفزيون الأردني (عمان ـ 2000).

28 . مسلسل الضمير / التلفزيون الأردني (عمان ـ 1997).

29 . مسلسل خيمة على الطريق (عمان ـ 1996).

30 . مسلسل السيف والغمد قصة الثورة العربية الكبرى (عمان ـ 1994).

31.مسلسل تل الشومر (عمان ـ 1998).

32 . مسلسل أيام القهر / مؤسسة الأمل / (السعودية ـ 1997).

33. مسلسل المنظوم / ART/ (جدة ـ 1998)

34. مسلسل مهما طال الزمن / مجموعة ماضي الماضي / (الرياض ـ 1998)

35. مسلسل السحاب والشوك / مؤسسة التسويق والإنتاج الإعلامي / (عمان ـ 1998).

36. مسلسل حكايات حمدي والعم غافل / التلفزيون الأردني / (عمان ـ 1998)

37. مسلسل الأسرة السعيدة / اللجنة الوطنية للسكان / (عمان ـ 2000)

38. مسلسل الأنباط / (عمان ـ 2002).

39. مسلسل نقوش على حد السيف/ أشعار الأمير خالد الفيصل/ راديو وتلفزيون العرب (جدة ـ 2003).

40. مسلسل الشيح والمنجل/ راديو وتلفزيون العرب(جدة ـ 2003) .

41. مسلسل الحبل والغارب/ مؤسسة الأمل للإنتاج الفني (الكويت 2004).

42. مسلسل عبد الملك بن مروان / مؤسسة نور الشريف / (القاهرة ـ 2003) .

43. السنام والغارب/ المركز العربي (2005).

44. عوده أبو تايه/ المركز العربي (2007).

45 . راكان بن حثلين/ المركز العربي (2008).

46 . الثورة العربية الكبرى (جزأين)/ المركز العربي (2008).

47 . مسلسل السنابل والرماح/ حياة عبد الله الأول ابن الحسين (2012).

و. إنتـاج مختـلف:

1. ألوان من القصة الأردنية / دائرة الثقافة عمان / 1974.
2. بحوث فلكلورية في مجلات فنون والفنون الشعبية وأفكار والصحف المحلية.
3. مقالات وتحقيقات صحفية.
4. أشعار شعبية / صحف محلية / مجلة الفنون الشعبية / مجلة الفنون .
5. الفنون الشعبية والدراما ـ بحث مقدم إلى مهرجان القاهرة التجريبي / القاهرة / 1995 .
6. الربابة عند البدو / بحث مقدم إلى مهرجان فنون البوادي في أسيوط / جمهورية مصر العربية أسيوط / 1993.
7. تجريتي في المسرح / بحث مقدم إلى مهرجان المسرح الأردني الثالث/ 1992.

ز . البـرامج والمسلسلات الإذاعية :

1. مقدمة في آداب البادية / برنامج إذاعي من (15) حلقة إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية 1977/ إذاعة دبي 1982 .
2. المحراث والبور / مسلسل إذاعي (30) حلقة / الإذاعة الأردنية / 1981 .
3. مشاهد اجتماعية / دراما إذاعية (21) حلقة / الإذاعة الأردنية/ 1976 .
4. أريافنا وبوادينا (200) حلقة / إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية 1975 / 1979.

5. صحافتنا في (25) عاماً برنامج وثائقي / إذاعة المملكة الأردنية/ 1977/ 1978 .

6. الحب والعطش / مسلسل إذاعي / 30 حلقة/ إذاعة الجمهورية العربية السورية / 1979.

7. لقاء من الخليج/ إذاعة أبوظبي/ الإذاعة الأردنية (30 حلقة) / 1977.

8. على طرف اللسان/ حكايات شعبية/ 20 حلقة/ الإذاعة الأردنية ـ 2006.

9. الفجر يأتي مبكراً / مسلسل إذاعي / 30 حلقة/ الإذاعة الأردنية/ 2006.

10. مسلسل الحسين الأول 60 حلقة/ إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية/ 2016.

11. برنامج حكايا أردنية/ إذاعة المملكةالأردنية الهاشمية / 2007 وحتى اليوم.

12. مسلسل الرجال مواقف/ حياة وصفي التل/ 2018.

س. البرامج التلفزيونيـة:

1. برنامج خاص عن محمود سيف الدين الإيراني/ التلفزيون الأردني / 1974.

2. برنامج المضافة / أسبوعي/ التلفزيون الأردنـي/ 1990 ـ 1994.

3. برنامج عيون التراث / التلفزيون الأردني / 2003 .

4. الزيتون في الأردن – برنامج خاص لدول حوض المتوسط.

5. معلمة التراث 20 حلقة / التلفزيون الأردني/ 2004.

ع . الجوائــز:

1. ميدالية الحسين للإبداع في مجال السيناريو والحوار / عمان/ 1995 .

2. جائزة رابطة الكتاب الأردنيين / مسرحية رسالة من جبل النار / عمان/ 1975.

3. جائزة مهرجان كراتشي / فيلم القاتل وعدالة البادية / كراتشي / 1974 .

4. جائزة مهرجان بغداد / فيلم نزهة على الرمال / بغداد/ 1988 .

5. جائزة مهرجان الدار البيضاء / فيلم وجه الزمان / الدار البيضاء / 1996.

6. جائزة مهرجان القاهرة / مسلسل الدومة الهلالية / 1996 .

7. جائزة مهرجان القاهرة / مسلسل السحاب والشوك / 2000.

8. جائزة مهرجان القاهرة الذهبية / مسلسل الفجر يأتي مبكراً / 2007.

9. جائزة مهرجان القاهرة الذهبية / مسلسل عودة أبو تايه/ 2008.

10. وسام الاستقلال من جلالة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين لجهده في إبراز التراث والعادات والتقاليد في الدراما المسرحية والتلفزيونية/ 2012 .

11. جائزة وزارة الثقافة عن أفضل سيناريو وحوار لمسلسل النابل والرماح/ 2015.

ف . في عيـون الاخريـن :

1. مسرح الزيـودي/ رسالة تخرج للطالبة نبيلة الزين/المعهد العالي للفنون المسرحية/ القاهرة/ 1980.

2. الكاتب المسرحي والتلفزيوني محمود الزيـودي/ رسالة تخرج للطالبة سحر الشوابكة/ جامعـة اليرموك / إربـد / الأردن/ 1996.

3. الدراما الاجتماعية في كتابات محمـود الزيودي / بحث تخرج للطالبة أروى الزعبي. معهد الخدمة الاجتماعية/ عمـان/ 1981.

صور غريسا



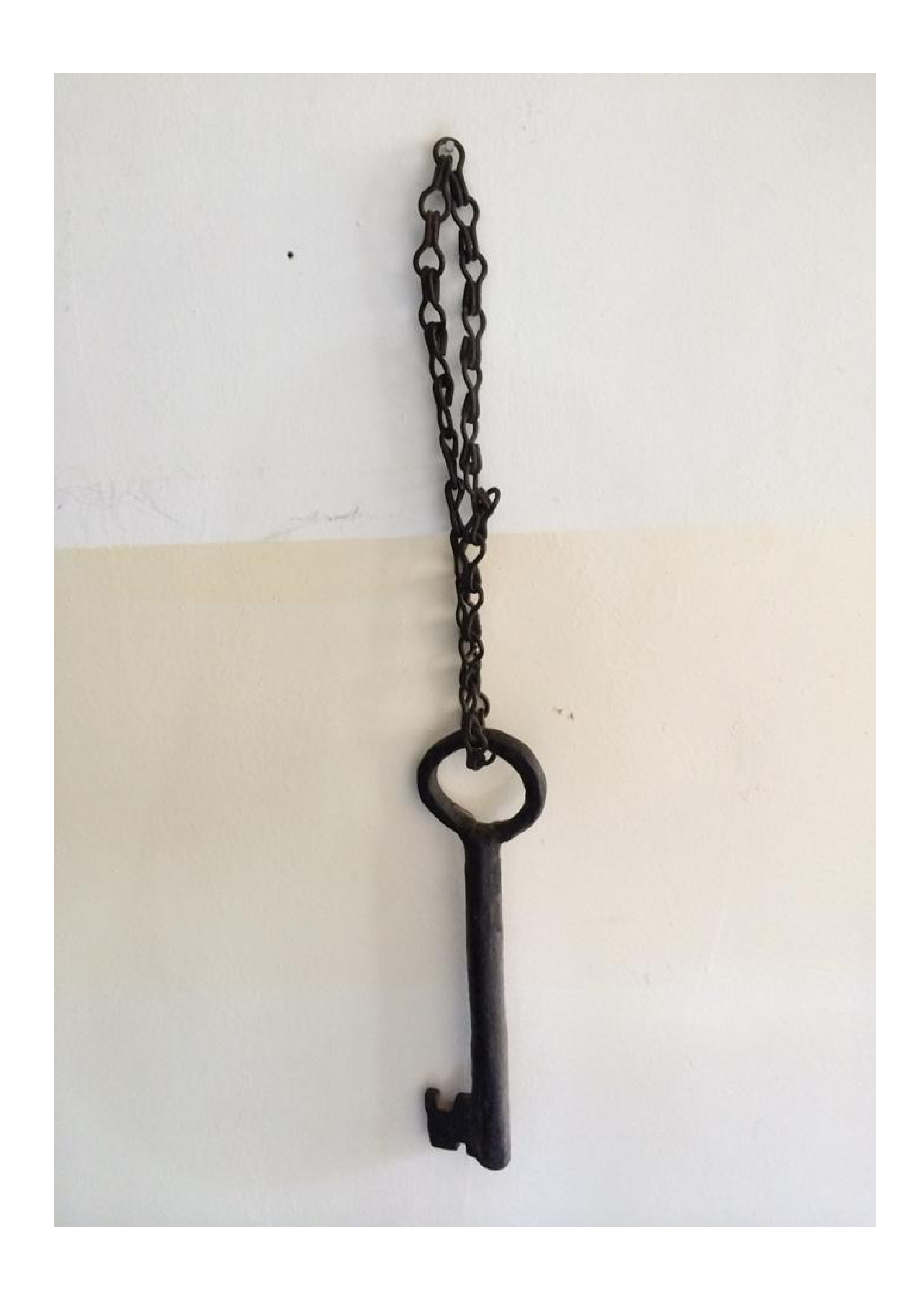






















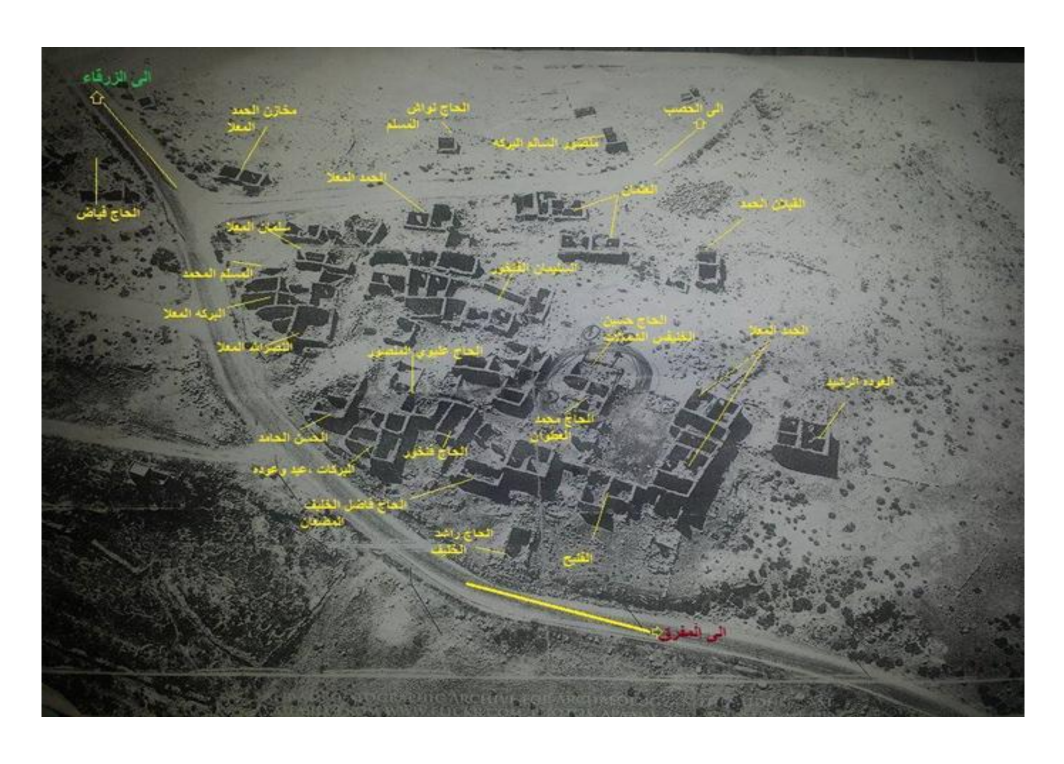











الى الزرقاء
مخازن الحمد المعلا
الحاج نواش المسلم
منصور السالم البركه
الى الحصب
الحاج فياض
الحمد المعلا
العثمان
الفيلان الحمد
سلمان المعلا
المسلم المحمد
البركه المعلا
النصرانه المعلا
الحاج عليوي المنصور
الحمد المعلا
العوده الرشيد
الحاج محمد العطوان
الحسن الحامد
الحاج فنخور
البركات ،عيد وعوده
الحاج فاضل الخليف المضعان
الحاج راشد الخليف
القبع
الى المفرق